تحرير المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسألة من المسائل التى أجملتها فى هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن إلى موضوع قل عدد المفكرين فيه ، لا أن أضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الإنسانى . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها فى أذهان أولادنا ، وظهرت ثمراتها ، وعملوا على اقتطافها ، والانتفاع بها .

ويرى المطلع على ما أكتبه أنى لست ممن يطمع فى تحقيق آماله فى وقت قريب ، لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث فى أمة من الأمم وتبدو ثمرته فى أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط ، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة .

وما نحن فيه اليوم ليس فى الطاقة البشرية تغييره فى الحال . وليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة ، لأن كل عصر لا يسأل إلا عن عمله . وإنما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا ، وندعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد فى كل زمان ومكان . وأن نعاند الحق وهو واحد ، لا يحتاج فى تقريره إلى تصديق منّا به ، وكل ما نقوله أو نفعله لإنكاره لا يؤثر فيه بشىء وإنما يؤثر فينا أثر الباطل فى أهله ، ويقوم حجابا بيننا وبين إصلاح أنفسنا ، إذ لا يمكن لأمة أن تقوم بإصلاح ما إلا اذا شعرت شعورا حقيقيا بالحاجة إليه ، ثم بالوسائل الموصلة له .

لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك فى أن أمته فى احتياج شديد إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إصلاح شأنها . فهؤلاء المتعلمون الذين أخاطبهم اليوم أقول : إن عليهم تبعة ماتألم له فى عصرنا هذا . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى أمتهم العجز واليأس والقنوط ، فإن ذلك صورة من صور الكسل أو مظهر من مظاهر الجبن أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بإلهه ، وأراهم بهذا يستسلمون إلى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف فى الجماد والنبات ، وتقذف بهم إلى حيث يحبون أو لا يحبون .

وقد طرقت بابا من أبواب الإصلاح فى أمتنا ، والتمست وجها من وجوهه فى قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم فى مجموعها ، وأتيت فى ذلك بما أظنه صوابا ، فإن أخطأت فلى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئى . وإن أصبت ، كما أظن ، وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا على نشر ما أودعته فى هذه الوريقات ، وتأييده بالقبول والعمل .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمهيد

(حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية
تابعة لحالة الآداب فى الأمة)

إنى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التى وصلت إليها ، وهى : ضرورة الإصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغلنى بورودها ، وتنبهنى إلى مزاياها ، وتذكرنى بالحاجة إليها ، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر .

ومن أحكم الأشياء التى يدور عليها تقدم النوع الإنسانى ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التى تدفع الإنسان إلى نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت إلى غاية نموها الطبيعى فى عقله ، واعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ، ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها من وجد فى نفسه شيئا منها . يشعر أنه إن لم يسابقها إلى ما تندفع إليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته إن غالبها وقاومته إن قاومها وقهرته إن عمل فى قهرها ، وظهرت فى غير ما يجب من مظاهرها ، كأنها الغاز المحبوس لا يكتم بالضغط ، ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتى على هلاك ما حواه .

والبراهين على ذلك كثيرة فى الماضى ، فإن تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التى قامت فى سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب ، وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل ، وكانت الأمم الإسلامية على هذه الحال فى القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد فى البلاد الغربية التى يصح أن يقال فيها إن حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلى بين أفراد الأمة فى جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجى بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصًا فى هذا القرن الذى ألغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والأبعاد وهدمت الحدود الفاصلة والأسوار المانعة حتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن الأشخاص الذين ساحوا فى جميع أنحاء الأرض يعدون بالألوف . وإذا ألف رجل من مشاهيرهم كتابا ترجم فى أثناء طبعه وظهر فى خمس أو ست لغات فى آن واحد ! .

ولم يركن إلى حب السكينة إلا أقوام على شاكلتنا . فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التى لا يصلح فيها نبات ، وحتى مال بنا الكسل إلى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثًا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح فى هذه الأزمنة .

وكثيراً مايكتفى الكسول وضعيف القوة فى الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول : تلك بدعة فى الإسلام . وما يرمى بهذه الكلمة إلا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث أو الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم ، وأقامهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الإنسانى وسائر المخلوقات الحية .

سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة ، فأقول : نعم أتيت ببدعة ، ولكنها ليست فى الإسلام . بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها .

لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله ، مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبدل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه ، إذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان؟ من ذا الذى يمكنه أن يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم أنها ثمرة من ثمرات عقل الإنسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان ؟ المسلمون منتشرون فى أطراف الأرض . فهل هم أنفسهم متحدون فى العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذى يمكنه أن يدعى أن ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركى أو الصينى أو الهندى . أو أن عادة من عادات البدوى توافق أهل الحضر أو يزعم أن عوائد أمة من الأمم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير .

والحقيقة أن لكل أمة فى كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها ، موافقة لحالتها العقلية . وأن تلك العوائد والآداب تتغير دائمًا تغيرًا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد والنظامات السياسية وغير ذلك . وأن كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتمًا أثر يناسبها فى العادات والآداب وعلى ذلك يلزم أن يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلافات بقدر ما يوجد بين مرتبتيهما فى العقل . وهو الأمر المشهور الذى لا ريبة فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والأوروباوى .

ولا يمكن أن يتصور أحد أن العادات ، التى هى عبارة عن طريق سلوك الإنسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه ، تكون فى أمة جاهلة أو متوحشة مثل ما تكون فى أمة متمدنة ، لأن سلوك كل فرد منهما إنما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته .

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى أن سلطان العادة أنفذ حكمًا فيها من كل سلطان ، وهى أشد شئونها لصوقا بها ، وأبعدها عن التغيير ولا حول للأمة عن طاعتها إلا إذا تحولت نفوس الامة وارتفعت أو انحطت عن درجتها فى العقل ، ولهذا نرى أنها تتغلب دائما على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم فى بلادنا من أن القوانين واللوائح التى توضع لإصلاح حال الأمة تنقلب فى الحال إلى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه .

وهذا هو الأصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخى من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها ، وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها . فقد علمنا أنه فى ابتداء تكون الجمعيات الإنسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق فى شىء ، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلاً تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها . وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة ، فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ، ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها . وكان من المباح عند العرب قبل الإسلام أن يقتل الآباء بناتهم ، وأن يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعى ولا عدد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل أفريقيا وأمريكا المتوحشة . وبعض الأمم الآسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة ، وإنها لا ينبغى أن تعيش بعد زوجها ، ومنهم من يقدمها إلى ضيفه اكراما له كما يقدم له أحسن متاع يمتلكه .

كل هذا يشاهد فى الجمعيات الناشئة التى لم تقم على نظامات عمومية ، بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة ، والقوة هى القانون الوحيد الذى تعرفه . وهكذا الحال الآن فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البلاد التى تدار بحكومة استبدادية لأنها تحكم كذلك بقانون القوة .

أما فى البلاد التى ارتفعت إلى درجة عظيمة من التمدن ، فإنا نرى النساء أخذن يرتفعن شيئًا فشيئًا من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التى كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشى وتلك تعدو ، كل ذلك بحسب حال الجمعية التى تنتسب إليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الأمريكية فى أول صف ، ثم تتلوها الانجليزية ، وتأتى بعدها الألمانية ، وتليها الفرنساوية ، ثم النمساوية ، ثم التليانية ، ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال ، فهى تبحث عن الوسائل لنيله . وأنها جديرة بالحرية ، فهى تسعى للوصول إليها وأنها من نوع الإنسان ، فهى تطالب بكل حق للإنسان .

والغربى الذى يجب أن ينسب كل شىء حسن إلى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحى ساعدها على نيل حريتها ، ولكن هذا الاعتقاد باطل . فإن الدين المسيحى لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة . ولم يرسم للناس فى هذا الموضوع مبادئ يهتدون بها . وقد أقام هذا الدين فى كل أمة دخل فيها بدون أن يترك أثرًا محسوسًا فى الأخلاق ، من هذه الجهة ، بل تشكل نفسه بالشكل الذى أفادته إياه أخلاق الأمم وعاداتها . ولو كان لدين سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض .

سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، وخولها كل حقوق الإنسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية ، من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها . وهذه المزايا ، التى لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات ، كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل إن شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافًا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق .

والميل إلى أن تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الإسلامية حتى فى مسألة التحلل من عقدة الزواج ، فقد جعلت لها فى ذلك طرقًا جديرة بالاعتبار سيأتى الكلام عنها خلافًا لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين .

ولم أر إلا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهى تعدد الزوجات . والسبب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فى ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب التى لا يقوم للزواج حياة بدونها ، وسيأتى الكلام عليها أيضًا فيما يلى . وبالجملة فليس فى أحكام الديانة الإسلامية ولا فيما ترمى إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الأمر بالعكس فإنها أكسبتها مقامًا رفيعًا فى الهيئة الاجتماعية .

لكن ، واأسفاه ! قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الإسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد وأوهام ، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الأمم حدًا يصل بالمرأة إلى المقام الذى أحلتها الشريعة فيه ، وكان أكبر عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا .

تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائمًا ، فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة ، فحكموا كيف شاءوا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون لها صوت فيها .

نعم إن كان الحاكم صغيرًا أو كبيرًا ملزمًا باتباع العدل واجتناب الظلم ، لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال إذا لم تجد حدًا تقف أمامه ورأيًا يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الأمم الإسلامية وهى تحت حكم الاستبداد المطلق ، وأساء حكامها فى التصرف ، وبالغوا فى اتباع أهوائهم ، واللعب بشئون الرعية . بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة . ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبهم .

إذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف أثره فى الأنفس عندما هو فى نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم إلى من دونهم وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى أو لم يرض .

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق .

قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة أن الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل إلى الشفقة ، لما يقاسيه من المصائب التى تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على أن الأمة المظلومة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يصلح جوها ولا تنفع أرضها نمو الفضيلة ولا يربو فيها إلا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين ـ وما العهد منهم ببعيد ـ يعلمون أن شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مائة من الأهالى . والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج عند عودته إلى بلدته ينتقم من مائة فلاح .

فمن طبيعة هذه الحالة أن الإنسان لا يحترم إلا القوة ولا يردع إلا بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس برجليه على شخصيتها . عاشت المرأة فى انحطاط شديد أيا كان عنوانها فى العائلة ، زوجة أو أمًا أو بنتًا ، ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة . فنما شخصها فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات واستعملها الرجل متاعًا للذة ، يلهو بها متى أراد . ويقذف بها فى الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق . وله العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه :

من احتقار الرجل المرأة أن يملأ بيته بجوار بيض أو سود أو بزوجات متعددة ، يهوى إلى أيهن شاء ، مقادًا إلى الشهوة مسوقًا بباعث الترف وحب استيفاء اللذة ، غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ، ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتى .

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب .

من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء ، من أم وأخت وزوجة ، ويأكلن ما فضل منه .

من احتقار المرأة أن يعين لها محافظًا على عرضها مثل أغا أو مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه .

من احتقار المرأة أن يسجنها فى منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة على النعش إلى القبر .

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلاً للثقة والأمانة .

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شىء يتعلق بها : فليس لها رأى فى الأعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملىّ .

ولست مبالغًا ان قلت : ان ذلك كان حال المرأة فى مصر إلى هذه السنين الأخيرة التى خفت فيها نوعًا سلطة الرجل على المرأة تبعًا لتقدم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ورأينا النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ويترددن على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهواء وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات التى عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق ، رجلاً كان أو امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن إلى السياحة فى بعض البلاد الأخرى . وكثير من الرجال قد أعطوا لنسائهم مقامًا فى الحياة العائلية .

وهذا إنما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس أولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم إلى أمانتهن : وهو احترام جديد للمرأة .

نعم لا ننكر أن هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد فى الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الأحوال التى احتفت به ، وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى أنفس الجمهور الأعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الأدب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الإسلامية سقطت كل تلك الانتقادات ، وأمكن للأمة أن تنتفع بجميع أفرادها ، نساء ورجالاً .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تربية المرأة

المرأة ، وما أدراك ما المرأة ! . إنسان مثل الرجل . لا تختلف عنه فى الأعضاء ووظائفها ولا فى الاحساس ولا فى الفكر ، ولا فى كل ما تقضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان اللهم إلا بقدر ما يستدعيه اختلافها فى الصنف .

فإذا فاق الرجل المرأة فى القوتين البدنية والعقلية فذلك إنما لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ، ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف فى الشدة والضعف على حسب الأوقات والأماكن .

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل إنهم يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعًا ، أو هو محرم بمقتضى الشريعة ؟ ! .

وأتذكر أنى أشرت يوما على أب ، وقد رأيت معه بنتًا بلغت من العمر تسع سنوات أعجبنى جمالها وذكاؤها ، بأن يعلمها فأجابنى : « وهل تريد أن تعطيها وظيفة فى الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا : « وهل فى مذهبك لا يتعلم إلا الموظفون ؟ » فأجابنى : « انى أعلمها جميع ما يلزم لإدارة منزلها ، ولا أفعل غير ذلك » . قال هذا على وجه يشعر أنه لا يحب المناقشة فى رأيه . وعنى هذا الأب العنيد بإدارة المنزل أن بنته تعرف شيئًا من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما أشبه ذلك من المعارف التى لا أنكر أنها مفيدة ، بل لازمة لكل امرأة . ولكنى أقول ، ولا أخشى نكيرًا : إنه مخطئ فى توهمه أن المرأة التى لا يكون لها من البضاعة إلا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها إلى إدارة منزلها .

فى رأيى أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها إلا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية . فيجب أن تتعلم كل ماينبغى أن يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها إلمام بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار مايوافق ذوقها منها وإتقانه بالاشتغال به متى شاءت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر فى تاريخ الأمم ووقفت على شىء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله فى نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء .

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التى تكمل بها النفس الإنسانية فى ذاتها . والفضائل التى لها أثر فى معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها : ولا يتم له ذلك إلا بالإرشاد القولى والقدوة الصالحة .

هذه هى التربية التى أتمنى أن تحمل عليها المرأة المصرية ، ذكرتها بالإجمال ، وهى مفصلة فى المؤلفات المخصصة لها فى كل اللغات . ولا أظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها أن تقوم بوظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى العائلة :

ـ ١ ـ

أما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء فى كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الأقل ، فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة ، وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى .

ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة إلا جهلها واهمال تربيتها ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم فى الأعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعالة ، تنتج بقدر ما تستهلك ، لا كما هى اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها ، ولكان ذلك خيرًا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه .

وإنما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه فى الصندوق ويكتفى بأن يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ، ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه فى سنين قليلة .

من عوامل الضعف فى كل مجتمع إنسانى أن يكون العدد العظيم من أفراده كلاً عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا عمل له فيما يحتاج إليه ، وان عمل كان كالآلة الصماء أو الدابة العجماء لا يدرى ما يصدر منه .

المرأة محتاجة إلى التعليم لتكون إنسانًا يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا أننا إذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها أن يكون لها ولى يقوم بحاجاتها ويدير شئونها ، كأن وجود هذا الولى أمر مضمون فى جميع الأحوال مع أن الوقائع أظهرت لنا أن كثيرًا من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن ، فالبنت التى فقدت أقرباءها ولم تتزوج ، والمرأة المطلقة والأرملة التى توفى زوجها والوالدة التى ليس لها أولاد ذكور أو لها أولاد قصر ـ كل هذه المذكورات يحتجن إلى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات أولادهن ان كان لهن أولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجئهن إلى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو إلى التطفل على بعض العائلات الكريمة . ويمكن أن يقال : إننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة .

ثم إنه لا تكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتى وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا أن نعد هذا من الأسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد .

لهذا السبب وغيره نرى الاختلاف الجسيم فى مالية العائلات ، فإن الرجل المصرى الذى يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطرًا من المال الذى يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الإنسانية بأن يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلاً يموتوا جوعًا . وهم يرون أنه إنما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ما حرموا من التربية .

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولى ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل إن كان فقيرًا أو تخفيف شىء من أثقال إدارة المال داخل البيت إن كان غنيًا ، فإن كانت المرأة غنية بنفسها ـ وهو نادر ـ بأن كان لها إيراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها التعليم فى تدبير ثروتها وإدارة شئونها ؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نرى النساء كل يوم فى اضطرار إلى تسليم أموالهن إلى قريب أو أجنبى . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشئون أنفسهم أكثر مما يشتغلون بشئون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل إلا وقد اغتنى الوكيل وأفتقر الأصيل .

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته لعدم إدراكهن كل ما يحتوى عليه ، أو عدم كفاءتهن لفهم ما أودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟ .

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات الحياة الإنسانية . وهو الآن يسعى إليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية . ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شأن الإنسان من منازل الضعة والانحطاط إلى مراقى الكرامة والشرف . ولكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الغريزية إلى أقصى حد ترمى إليه باستعدادها .

وقد جاءت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجال . فأى نفس شريفة لا تشتاق إلى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلبًا للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأى فرق بين الرجل والمرأة فى هذا الشوق ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والاناث يستوون فى الاستفهام عن كل شىء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك فى الأنثى أشد منه فى الذكر .

أى نفس حساسة ترضى بالمعيشة فى قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذى لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحى إليها الآمال والرغائب فى فتح أسرارها ؟ .

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض أن الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثًا . وأنه آتاها من الحواس وآلات الادراك ما آتاها لأجل أن تهملها ولاتستعملها ؟ .

يقول المسلمون : إن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل .

وأن وظيفتهن تنتهى عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش فى عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره إلى ما وراءه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها . فإن الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ فى نظره إلا كما كان يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه على أن يتسلى به .

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ أن يتخذها إلا امرًا صالحًا لخدمته مسيرًا بإرادته . وأغلق فى وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها إلى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه إلا أن تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة .

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها ، وإنما بضاعتها أن تسلى الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء ، وجهت جميع قواها إلى التفنن فى طرق استمالته إليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه .

مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف فى إرادتها . فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر . وهو الرائد لها فى الاختيار بين النفع والضرر . فهى تنفر أو تميل . فإن أحبت أخلصت لا عن عقل . وصدرت منها الأعمال الجميلة فى ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأى : وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر . فلو كانت العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرفت فى أعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الأدب .

أضلت المرأة عقلها فى ظلمات الأجيال الماضية ، ففقدت رشدها وأدركها العجز عن تناول ما تشتهى من الطرق المسنونة ، فاضطرت إلى استعمال الحيلة وأخذت تعامل الرجل ـ وهو سيدها وولى أمرها ـ كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر إلى غاية ليس وراءها منزع ، فأصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر فى المظاهر المتضادة والألوان المختلفة فى كل حال بحسبها . ذلك لا عن عقل وحكمة وإنما هى حيل الثعالبة .

ولكن لا لوم عليها وعذرها أنها ليست حرة . وإنما فقدت الحرية لأنها فقدت السلامة فى قوة التمييز . بل اللوم كل اللوم على الرجال : أريد بهم من سبقنا ممن أهملوا تربية نسائنا .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- ٢ -

وأما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفى لكل إنسان متفكر أن يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد أن استمرار الحال على ما هى عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله .

إنى أكتب هذه السطور وذهنى مفعم بالحوادث التى وردت على بالتجربة ، وأخذت بمجامع خواطرى ، ولا أريد أن أذكر شيئًا منها لعلمى أنها ما تركت ذهنًا حتى طافت به ولا خاطرًا حتى وردت عليه . فإن مثار هذه الحوادث جميعها هو شىء واحد ، وهو المرض الملمّ بجميع العائلات ، لا فرق بين فقيرها وغنيها ، ولا بين وضيعها ورفيعها ، وهو جهل المرأة . **فقد تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا فى الملبس والحلى . بل يمكن أن يقال ، إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها . وإن آخر طبقة من نساء الأمة وهى التى تسكن الأرياف هى أكملهن عقلاً بنسبة حالها .**

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركها فى مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريبًا ، مع أننا نرى أن المرأة فى الطبقة العلية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفن فى الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا .

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله ، وله ذوق مهذب يميل إلى الأشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة ، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدًا ينتهى إلى إهمال الأمور المادية . يفهم كلمة ، ويود لو يفهم بالإشارة . يسكت فى أوقات ويتكلم فى أخرى ويضحك فى غيرها . له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية ، فيبكى مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفى كل فكرة يتولد فى ذهنه احساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه إنسانًا آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعى يجده كل شخص من نفسه . فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها ، ولم يلبث أن يرى نفسه فى عالم وحده وامرأته فى عالم آخر . إذ هى تعتبر أن الرجل ما خلق فى هذه الدنيا إلا ليشترى لها الأقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف أوقاته فى ملاعبتها كأنه صورة أكبر من التى كان يشتريها لها والدها فى صغرها لتلهو بها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر إلى نفسه احتقارها ، واعتبرها من الأعدام التى لا أثر لها فى شئونه ، وهى متى رأته أهمل وأغضى ضاق صدرها وظنت أنه يظلمها وبكت سوء حظها الذى ساقها إلى رجل لا يقدرها قدرها ، ونبتت البغضاء فى قلبها . ومن ثم تبتدئ عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها . عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذى يحول بينه وبين السعادة .

ولا يظن أن هذا يختص بذوى الأخلاق الفاسدة من الرجال والنساء ، فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ، ولا ذنب على أحدهما بل الذنب على اختلافهما فى التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة ـ إن استمر الاقتران بينهما ـ أن يميت أحدهما حقه فى سبيل راحة الآخر ، أو يجر كلاهما قيده الثقيل إلى آخر العمر . ولكن مهما كان حال الزوجين ـ وهما ما ذكرنا من الوصف ـ فلا سبيل إلى ارتباطهما برابطة المحبة إذا أخذت بمعناها الخاص . ولا خسران فى الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة .

جاء فى القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية إن الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما أظن ، رمز لطيف إلى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعًا واحدًا لا يتم إلا باتحادهما ، ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل ، وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على أن المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد ، مفتقر بعضه إلى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع .

وهذا الانجذاب الغريزى الذى أوجده الله فى كل المخلوقات الحية ـ حتى النباتات التى يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والأنثى إذا آن وقت التلقيح على طريقة حار فى تفسيرها علماء الطبيعة ـ هو أهم عنصر يدخل فى تركيب الحب . وهو يكفى لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف فى الإنسان عن الحيوان . أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضًا كأصول كل الأشياء تقريبًا .

وإنما يرجح قسم من العلماء أنه سيال يتولد فى المراكز العصبية ، فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما . فإذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التى تهيج قلبيهما قبل أن ينطلق اللسان ، كأن روحيهما صديقتان افترقتا فى عالم قبل هذا العالم وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى إذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التى كانت تنشدها ، وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأمانى أكبر من مجرد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التلاقى ، فتختلطان ، ويحدث بينهما شبه العهد على ألا يفترقا . ترى كل واحدة منهما أن لا سعادة لها إلا باتصالها بالأخرى .

لكن هذا الانجذاب المادى لا يلبث مدة حتى يأخذ فى التلاشى ويتناقص شيئًا فشيئًا . فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاقى فهى صائرة إلى الزوال فى زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الأمزجة . وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأمانى ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الإنسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلى من بهاء الأرواح وسناء العقول . فهو يضم إلى المنظر البديع الجسدانى منظرًا آخر قد يكون أبدع فى اعتباره وهو المنظر الروحانى العقلى . وكثيرًا ما يستبدل لذة الحس التى لا بقاء لها بلذة العقل الروحانى التى لا تنتهى أطوارها ولا تفنى مظاهرها . يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها إذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ، ورقة الذوق ، وبهاء الفطنة ، ونفاذ العقل ، وسعة العرفان ، وحسن التدبير ، والحذق فى العمل ، مع المحافظة على النظام فيه ، ونظافة الباطن والظاهر ، وحنو القلب ، وصدق اللسان ، وطهارة الذمة ، وعظم الأمانة ، والاخلاص فى الولاء ، ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التى ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان اللذة بهذا المعنى عنصر آخر يدخل فى تركيب الحب أيضًا ـ ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام .

وإليك بيانًا يزيد فى فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت فى الأفراد فهى دائمًا واحدة . فإن أفراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه إلى حد تكاد لا تتميز إلا باختلاف الزمان أو المكان مثلاً ، فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيًا وثالثًا ورابعًا ، وهكذا .

ومن البديهى أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظرة أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضى فى الغالب إلى فقد الرغبة فيها ، فيأتى زمن لا تتنبه الأعصاب لها ، لكثرة تعودها عليها ، والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية .

هذه اللذة فى طبيعتها أنه يمكن تجددها فى كل آن . تأمل فى مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه فى روح الآخر فيسرى عقلاهما من موضوع إلى موضوع وينتقلان من الجزئيات إلى الكليات ويمران على الآلام والآمال والقبيح والحسن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والناقص والكامل . كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقليهما غذاء جديدًا ويفيد نفسيهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ماتجلت به نفسه من علم وأدب وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد فى رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة .

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقى على الإنسان ، وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك لحب الشريف من أكبر السعادات فى هذه الدنيا . فإن كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها .

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة إذا لم يوجد بينهما تناسب فى التربية والتعليم ولا يجب أن يفهم أن الرجل المتعلم إذا لم يحب زوجته فهى يمكنها أن تحبه . فإن توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم ، لأن الحب الحقيقى الذى عرفت عنصريه المادى والمعنوى لا يبقى إلا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها .

سل جمهور المتزوجين : هل هم محبوبون من نسائهم ؟ يجيبونك : نعم . لكن الحقيقة غير مايظنون . إنى بحثت كثيرًا فى عائلات مما يقال أنها فى اتفاق تام فما وجدت إلى الآن لازوجا يحب امرأته ولاامرأة تحب زوجها . أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين ، إما لأن الزوج تعب وترك ، وإما لأن المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، وإما لأنهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين . ولا أرى ما يقرب من السعادة إلا فى هذا النوع الأخير وإن كان سعادة سلبية لا قيمة لها .

أما فى النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال ، وهو فناء أحد الزوجين فى سبيل إبقاء الآخر . وغاية ما يمكن أن أسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شىء يقرب من المودة يظهر فى بعض الأحيان ثم يختفى . وهو استثناء يؤيد القاعدة ، وهى عدم الحب . عدم الحب من طرف الزوج لأن امرأته متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخرًا فاحشًا ، بحيث لا تكاد توجد مسألة يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . لا يكاد يوجد أمر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحد . ولأنها بعيدة عن العواطف والمعانى والأشغال التى يميل إليها ومغمورة فى شئون ليس لها من ميله نصيب . حتى فى الأمور التى هى من عملها ، وترى أنها خلقت لأجلها ، لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فأكثر النساء لم يتعودن على تسريح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شعورهن كل يوم . ولا على الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع ، ولا يعرفن استعمال السواك ، ولا يعتنين بما يلى البدن من الملابس ، مع أن جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير فى استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ، وكيف يحافظ عليها ، وكيف يمكن تنميتها ، وكيف تكون موافاتها . ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فإذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك .

وأما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب . ولو أردنا أن نحلل أحساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : **ميل** إليه من حيث هو رجل أبيح لها أن تقضى معه شهواتها ، **وشعور** بأن هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها . أما ذلك الامتزاج بين روحين ، اختارت كل منهما الأخرى من بين آلاف من سواهما ، امتزاجًا تامًا يؤلف منهما موجودًا واحدًا ، كأن كلا منهما صوت والآخر صداه ، ذلك الإخلاص التام الذى ينسى الإنسان نفسه ولا يدع له فكرًا إلا فى صاحبه . ذلك الاخلاص الذى لا نجد له مثالاً أظهر من حب الوالدة لولدها ـ فهى بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض ، لأن الحب بهذه الدرجة إن لم يكن طبيعيًا كحب الأم لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب إلا عند النفوس العالية التى تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار .

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير ، أبيض أو أسود . أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ودقّة إحساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده فى الوجود ، وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به إلى أن يكون محترمًا محبوبًا ممدوحًا فى أمته ، فهذا لا يصل إلى عقلها شيء منه ، وإن وصل فلا يؤثر على منزلته فى نفسها . وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه ؟ ! .

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم ، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفًا لنا . ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى ، وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الأشغال فى مكتبه ، كلما رأته جالسًا منحنى الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهى إلا بنزاع جديد ، ولا يدرى الزوج المسكين ما يصنع إذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زوجتين ! . فقد رأينا أحيانا كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجين لرجل واحد . وما سمع قط أن امرأة مصرية ممن تعنى رضيت بمعاشرة العلم .

ومن البديهى أن الرجل الذى يكون هذا حاله ينتهى بفقد كل استعداد للعمل . لأن العلم لايثمر إلا إذا كان العقل متمتعا بالهدوء والسكون ، خاليا عن الاضطراب والتشويش . ولأن الرجل يطلب راحته وهى فى يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه .

رأينا مما تقدم أن المرأة المصرية لاتجد ذوق الحب خصوصا إذا كان زوجها متعلما يصرف وقته فى الأعمال النافعة .

قد يقال : إن الحب الذى تكلمت عنه هو كمال السعادة ، وليس من الأمور الضرورية التى لايستغنى عنها فى الزواج . وإنه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة . ويكفى أن المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له فى المنافع والمضار ، ولذلك فهى تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة .. هذا يمكن أن يكون . ولكن كيف الوصول إليه أيضا مع جهل المرأة .

قلت إن المرأة الفلاحة مع جهلها هى زميلة الرجل فى كل أعماله ، وهى قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لأن العيشة فى الأرياف ساذجة بدوية تقريبا ، وحاجات العائلة قليلة . أما فى المدن التى ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها إدارة المنزل إلى درجة إدارة مصلحة من كبار المصالح ، فالمرأة التى يسلم إليها زمامها لايمكنها أن تديرها إلا بالتعليم والتربية .

والحقيقة ان إدارة المنزل صارت فنا واسعا يحتاج إلى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لايوجد خلل فى مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لايفلتون لحظة من مراقبتها ، وبغير هذا يستحيل أن يؤدوا خدمتهم كما ينبغى . وعليها أن تجعل بيتها محبوبا إلى زوجها ، فيجد فيه راحته ومسرته إذا آوى إليه . فتحلو له الاقامة فيه ، ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضى أوقاته عند الجيران أو فى المحلات العمومية وعليها ـ وهو أول الواجبات وأهمها ـ تربية الأولاد جسما وعقلا وأدبا .

وظاهر أن تطبيق هذه الواجبات ، التى ذكرتها بالاجمال ، على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعى عقلا واسعا ومعلومات متنوعة وذوقا سليما : لايتأتى وجود ذلك فى المرأة الجاهلة وخصوصا مايتعلق منها بتربية الأطفال .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالغنا فى نسيان أن الأولاد هم صناعة الوالدين ، وان الأمهات لهن النصيب الأوفر فى هذه الصناعة . بالغنا فى اعتقاد أن الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد وأنه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح إذا أخذ عن جهة أن الله قادر على كل شئ ، ومن متناول قدرته أن يفعل مثل ذلك . فإن كان المقصود أن الله يمكنه أن يفعل مثل هذا فلا شك فى قدرته سبحانه وتعالى . وليس من ينازع فى أنه لو شاء فعل ذلك . كما أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولأنبت الحيوان من الأرض . لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما وللمخلوقات نواميس تجرى عليها أحكامها :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها . لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم)[٢٦٩] . وتاريخ الإنسانية من عهد وجودها على الأرض إلى الآن أيد ثبات هذه السنن واستمرارها .

من أكبر مظاهر حكمته ، جل شأنه ، هذه الحقيقة التى كشفها لنا العلم ، وهى أن كل فرد من الأنواع الحية ـ وفيها النوع الإنسانى ـ ليس إلا نسخة مطابقة للاصل المتولد منه ، ففيه صورة نوعه الكلى ، وفيه صورة والديه خصوصا ، بمعنى أن هذا الفرد يحتوى أولا على الخواص المميزة لنوعه ، وعلى الصفات الخاصة بأبويه .

ودلت الاكتشافات الحديثة أيضا على أن كل الملكات العقلية والادبية فى الإنسان إنما هى مظاهر من وظائف المخ ، كما أن الصفراء من عمل وظيفة الكبد ، ومايسمى عقلا أو عاطفة فلا عمل له إلا عمل تلك الوظائف ، وعملها تابع لحالة الأعصاب والمخ ، وإنما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الأصل الذى تولدت منه ، فلا ريب أن يكون لها تبعية عظمى لذلك الأصل . ثم من الظاهر أن الجسم لايستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الأولى ، بل لابد فى النمو والبقاء من التربية والغذاء ، فكذلك حال العقل والملكات لايستغنى بما أودعته المدارك والقوى من الاستعداد الأول ، بل لابد فى ظهور أثرها وسيرها فيما أعدت له من الغذاء الذى يوافقها والتربية التى تلائمها ، فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع إليهما شخصية الطفل ذكرا كان أو أنثى وليس هناك شىء من وراء ذلك .

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان ، صالحا كان أو فاسدا ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو فى بطن أمه ، فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه أسلافه من جهة الأم ومن جهة الأب . وبالتربية يمتلئ ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس

---

(٢٦٩) الروم : ٣٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبأثرها فى نفسه ألما كان أو لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول إلى إدارة مربيه فهو الذى يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم ، وهو الذى يعرض على وجدانه من العواطف مايراه لائقا به ، فإن لم يرد عليه من صور المحسوسات إلا ماهو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة ، أو لم يشعر من العواطف إلا بما يظهر أثره فى أقرب الأشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع أول خاطر يبدو له ، كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون ، وان كانت معلوماته كثيرة تحتوى على صور الاشياء وصور مايحدث عنها لأول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك وكان وجدانه رقيقا لطيفا كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطىء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور ، فينشأ وبيده ميزان يزن به أعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل إلى النافع والنفرة من الضار .

لانقول إن الطفل يكون فى ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد ، ولكنها أوائل وجراثيم من الكمال العقلى والأدبى تصل بالتنمية والتربية إلى تلك الغايات الشريفة التى يسعى إليها كل من عرف معنى الإنسانية وذاق لذة الفضيلة ، فسلامة العقل لاتتم إلا بحسن الوراثة وحسن التربية ، وهذا ماجعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد فى الأخلاق إلى مرض فى المخ أو فى الاعصاب موروث أو مكتسب . وان شوهد ان الولد لايشابه أبويه فى بعض الأحوال فذلك إنما لأن قانون الوراثة قد يرجعه إلى أسلافه القريبين .

متى حسنت التربية على الوجه الذى ذكرناه ضعف الاستعداد الذى كسبه الطفل من والديه إن كان رديئا ، وتأصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ، ويقوى فيه ذلك الاستعداد إن كان حسنا فيبلغ غاية مايرجى لإنسان فاضل من أبوين فاضلين ، ويظهر أثر ذلك أيضا فى أولاده وأعقابه إن استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذى صار به هذا الوالد رجلا صالحا . أما إن كانت التربية فاسدة ، وكل مايرد على الطفل إنما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجنى على أولاده تلك الجناية التى جناها عليه والده .

قال الغزالى[٢٧٠] فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت أن أوردها هنا وهى : « الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل

---

(٢٧٠) أبو حامد محمد (١٠٥٩ ـ ١١١١ م) متكلم وفقيه وصوفى ، من اشهر علماء الإسلام ، كان أشعريا هاجم الفلاسفة من منطلق شرعى وصوفى ، وترك آثارا فكرية عديدة جعلت وجهة نظره تطبع الفكر الإسلامى بطابعها إلى حد كبير .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكل ماينقش ، ومائل إلى كل ما يمال إليه به . فان عود الخير علمه وعمله ونشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه الوالى له . وقد قال الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) »[٢٧١]

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة إلى ذلك واحدة هى أن يشاهد الطفل آثار هذه الأخلاق حوله . لأن التقليد فى غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته ، فإن كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل مايزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة ، ويرى من الأعمال مالاينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالأخلاق الفاسدة ويعتاد العوائد الفاسدة .

ويرى الاسوة السيئة فى بيته وفى الخارج ، وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الأخلاق وكبرت معه بكبره ، فإذا وصل إلى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلا سيئ التربية ولاسبيل له بعد ذلك إلى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله ، ويندر جدا أن يوجد شخص يبتدئ بعد بلوغه سن الرجولية فى اصلاح ماقسد من ملكاته ثم ينجح فى ذلك ، اللهم إلا إلى حد محدود .

ومن المعلوم أن الطفل لايعيش من طفوليته إلى سن التمييز إلا بين النساء ، فهو دائما محاط بأمه وأخواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى اباه فى أوقات قليلة ، فإذا كان هذا الوسط الذى ينشأ فيه طيبا كانت تربيته طيبة وإن كان سيئا ساءت تربيته ، والأم الجاهلة ليس فى استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لأنها لاتعرفها ، وغاية ماتستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ، إن لم تبذر بيدها حبوبها فى نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة .

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا فى الطريق والأزقة يتمرغ فى الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته ، الذى هو رأس ماله ، مضجعا أو نائما أو لاهيا مع أن سن الطفولية لايعرف الكسل ، وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لانتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح ،

---

(٢٧١) التحريم : ٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان ، وإذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرءوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع إلى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت ، وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به إلا الجاهلون بأصول الدين وفضائل الأعمال وله من الأثر السيئ فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال مايجر إلى كل شر ويبعد عن كل خير ؟ .

قد صار من المقرر عندنا أن الأمهات لايفلحن فى تربية الأولاد حتى صار من المثل فى الحطة ورداءة السير أن يقال : فلان تربية امرأة ـ على اننا نرى أن تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجال ، وأن أحسن الناس تربية هم من ساعدهم الدهر فى أن تتولى تربيتهم امـرأة وليس هذا بغريب فإن المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها أقوى استعدادا للنجاح فى التربية ، ذلك أنها أصبر من الرجل فيما تحب ، وأنها ألطف منه فى المعاملة ، وأرق منه فى العواطف والاحساسات ، ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى أحوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى أحد كتب رونان[٢٧٢] الفيلسوف الشهير ماحصله : «إن أجمل ماوضعه من مؤلفاته كان إلهاما من اخته» وقال الفونس دوديه[٢٧٣] الكاتب المجيد فى بعض ماكتبه : «ان كنت استحق فخرا فلامرأتى نصفه» . وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الأوروباويين ، وكلها تدل على أن تربية المرأة أمر لايستغنى عنه ، وان القسم الأعظم منها منوط بالمرأة .

وقد نجد فى هدى نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايشير إلى ذلك ، بل كان يجب أن يعد أصلا من الأصول التى نركن إليها فى بناء أمورنا الملية ، حيث قال فى شأن عائشة رضى الله عنها : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وإنما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت .

---

(٢٧٢) هو الفيلسوف المستشرق ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م) من أبرز مفكرى الحضارة الاوروبية ، فى فرنسا ، على عصره ، وله اهتمامات خاصة بالفكر الدينى ، من الناحية التاريخية ، كما تعد دراسته عن [ابن رشد والرشدية] اول دراسة حديثة عن فيلسوف قرطبة ابى الوليد ابن رشد .

(٢٧٣) الفونس دوديه (١٨٤٠ ـ ١٨٩٧ م) اديب فرنسى ، امتاز بسحريته اللاذعة ، وله آثار فى الشعر والقصص والترجمة الذاتية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أود أن كل مصرى يرى أن مسألة التربية عندنا هى أم سائر المسائل ، وان كل مسألة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها .

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة فى الدين ، ولا هى موافقة لما يستحسنه العقلاء ، حتى من المصريين أنفسهم ، وقل مايشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد آن الوقت ، على ما أظن ، لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية تربية تنشئ رجالا أولى علم وأصالة رأى ، يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل ، تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى فى كل يوم وبكل لسان كلها ترجع ، مهما اختلفت فى الاسم إلى سبب واحد وهو النقص فى تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع أهل النظر فى مصر على أن التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء ، وانتشر هذا الرأى الصائب فى الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح أن يقال : إنه أصبح رأيا عاما ، وتولد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها .

ولكن أرى همم الناس موجهة إلى التعليم ولا أرى أحدا يلتفت إلى تربية النفوس ، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور .

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى ، وإنما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وان يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين .

أما مايتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئا من الخياطة والتطريز والموسيقى ، ولايتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت إليها ، وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن . فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها ، ولاتتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية . فتقضى حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قل ماتفيد إلا فى إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة إلى دخان السيجارة التى تقبض عليها .

أكثر ما تعرفه المرأة التى يقال الآن إنها متعلمة هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسائط التعليم وليست غاية ينتهى إليها ، ومابقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لايبقى شىء . اين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم ؟! لاشىء ينفع الإنسان مثل اكتسابه مايسمى عقلا عمليا ، أريد بذلك مايقابل التخيل الذى يعيش به صاحبه فى أوهام وهواجس لاترجع إلى حق ثابت . فإن كل مصائب الإنسان تأتى له من باب واحد وهو الخيال : كلما تجرد الإنسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر مايبعد عن الحقيقة .

الحقيقة هى ضالة الإنسان فى العالم ، ويجب عليه ، ان يسعى وراءها بلا قصور ولاتعب . الحقيقة هى الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الإنسان ، لايجدها إلا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هى مشرق السعادة ، لأنها الوسيلة وحدها لوصول الإنسان إلى كمال العقل والنفس . والنساء مثل الرجال فى الحاجة إلى معرفة الحقيقة وإلى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن فى الحياة إلى الأعمال الطيبة النافعة .

انظر إلى الطفل تجده يشتهى وينفر ، ويحب ويكره ، ويفرح ويحزن ، ويضحك ويبكى ، ويسكن ويغضب ، وهو فى كل ذلك إنما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد إلى خيال ، وإذا أراد شيئا فمنع عنه لم يستعمل للوصول إلى غرضه إلا شيئا من الغش والمكر والكذب ، لم ذلك ؟ لأن عقله ضعيف ومعارفه قليلة ، ولم تصل قواه العقلية إلى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الأعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحيانا وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحيانا أخرى ، والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل ، فيما ذكرنا .

سلب الرجال ثقتهم من النساء ، واعتقدوا انهن اعوان ابليس ، فلا تسمع إلا ذما لخصائلهن ، وتنقيصا لعقلهن ، وتحذيرا من مكرهن ، وأنا لا أبرئ النساء الآن من هذه الصفات ، ولكن أرى أن التبعة ليست عليهن بل على الرجال .

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب اخلاقها وتثقيف عقلها ؟ ايجوز ان نترك نساءنا فى حالة لاتمتاز عن حالة الانعام ؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لايعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن ، كما فى الكتاب (صم بكم عمى فهم لايعقلون)[٢٧٤] ؟! أليس بينهن امهاتنا وبناتنا

---

(٢٧٤) البقرة : ١٧١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخواتنا وزوجاتنا ، وهن زينة حياتنا الدنيا ، والجزء الذى لا يمكن فصله منا ، دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟! أليس الرجال من النساء ، والنساء من الرجال ، وهن نحن ونحن هن ؟! أيتم كمال الرجل إذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال إلا بالنساء ؟!.

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة فى الدنيا ، وهى التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء .

كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له ، وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ، وهذا فإنا نشفق عليهن ونحن إليهن ونعذرهن ، ولكن لا تكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق ، وهو معدوم .

والإنسان محتاج إلى أن يكون محبا وان يكون محبوبا ، ومن فضل الله عليه أن وضع بجانبه أمهات وزوجات ، وغرس فى قلوبهن محبته وفى قلبه محبتهن ، وهذه أكبر نعمة مَنّ الله علينا بها ، لأن هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة إذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا فى سجن الحياة ، وهونت علينا الآلام والمصائب التى لولا هذه التسلية لأفضت فى بعض الأوقات بأقوى رجل منا إلى اليأس ، فعدم تقديرها قدرها ، وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير فى شكره .

بقى علينا أن ندفع اعتراضا لا يمكننا السكوت عنه ، لأنه فى الحقيقة هو المانع الوحيد الذى اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من أن التعليم يفسد اخلاقها .

رسخ فى اذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان ، وقال الاقدمون فى ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة ، فلو تعلمت لم يزدها التعليم إلا براعة فى الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة فحذونا مثالهم ، واعتقدنا أن التعليم يزيد تفننها فى المكر ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد .

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل ، شديدة الحيلة ، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان ، وقد بينا ان هذه الحالة هى أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة ، وأنه متى زال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السبب فلاشك أن المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها ، فهذا ننكره ونشدد النكير عليه ، فإن التعليم ـ خصوصا إذا كان مصحوبا بتهذيب الأخلاق ـ يرفع المرأة ، ويرد إليها مرتبتها واعتبارها ، ويكمل عقلها ، ويسمح لها أن تفتكر وتتأمل وتتبصر فى أعمالها . وان وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم ، وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع أن ألوفا من النساء الجاهلات دنس عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم أو خادمة أو دلالة أو جارة عجوز .

والحقيقة ان طهارة القلب فى الغرائز والطباع ، فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحا وتقوى ، وإن كانت فاجرة لم يزدها العلم فجورا ، وهكذا الحال فى الرجال ، وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لايمنع من تعاطيه . فقد قال الله فى شأن كتابه : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين)[٢٧٥] .

فأثر التعليم لايمكن أن يكون ضررا محضا ، ولايمكن أن يكون منشئا حقيقيا لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ، ولاتقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها ، بخلاف الجاهلة فإن من أخلاقها الطيش والخفة . وأذكر ملاحظة واحدة تؤيد ماقدمته وهى أن نساء الأفرنج ، على العموم ، مهما كان حالهن فى الباطن يحافظن على الظواهر ، فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضا أياما وأشهرا ولايكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما ، وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار ، يغضضن أبصارهن عن الرجال ، وان نظرن إليهم فمن طرف خفى . أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيرا من ظاهرهن ، ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت إليه وتأملته : والتفتت نحوه ولوت عنقها إليه ، ولاشعور لها بأن مثل هذه الحركات التى تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء فى بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن فى الطرق والمجتمعات العامة من الأمور المخلة بالآداب التى يستحى القلم عن أن يجرى برسمها : هذا الفريق من الأجانب يصعب تمييزه عن الحرائر إلا ببعض أمور يعرفها أهل الخلاعة .

ثم إن البطالة التى ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كلها من لوازم حياتهن هى أم الرذائل . إن كان نساؤنا لايعملن شيئا فى المنازل ولايحترفن بصنعة ولا يعرفن فنا ولايشتغلن بعلم

---

(٢٧٥) البقرة : ٢٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يقرأن كتابا ولا يعبدن الله فماذا يشتغلن حينئذ ؟ أقول لك ، وأنت تعلم مثلى ، أن ما يشغل امرأة الغنى والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع إلى مالانهاية له ويتشكل فى كل آن بشكل جديد ، وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الأحوال ، ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها ، فتارة تتخيل أنه يكرهها ، وتارة تظن أنه يحبها ، واحيانا تقارنه بأزواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسبا أو خاسرا ، واحيانا تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق ، واحيانا تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزع منه محبتهم ، ان كان ودودا لهم ، ولاتغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات ، وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائما موضوع الشك ، ومن وسائل الاحتياط ألا تقبل الخادمة إلا إذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها إليها ولاتستريح من هذا الشاغل إلا إذا أفرغته فى اذن أخرى من أمثالها ، فإذا فرغت من تصويره فى العبارات رجعت إلى تمثيله فى الخيالات وهكذا ، ولهذا ترى إذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص مابينها وبين زوجها واقارب زوجها واصحاب زوجها ، وحزنها وفرحها ، وهمها وسرورها ، وتفرغ كل مافى صدرها حتى لايبقى سر من أسرارها ـ ولو كان متعلقا بالفراش ـ إلا وقد اخبرت به .

هذا إذا كانت المرأة محبة لزوجها ، أما إذا كانت لاتميل لزوجها ، أو كانت غير متزوجة فأكرر سؤالى : بماذا تشتغل حينئذ ؟ أما الأولى فإنها تفتكر فى طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه ، أما الثانية فأعظم همها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أيا كان ولاتضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذى يصح أن يكون لها زوجا ، فإنها إنما تطلب رجلا ومن البديهى أن المرأة التى يكون هذا حالها إن كانت فاسدة الأخلاق ووجدت فرصة لاتتأخر عن انتهازها ولاتكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شىء لديها ، وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلمات . إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لايحل لهن لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت ، وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لايكون أهلا لها ، ولا تسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة ، وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفى مافى نفسها عن أخص الناس بها .

والمعول فى كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الأخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الابتدائية ، فإن اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح أو يهيج حسها إلى أمر غير لائق ، وتعودت على أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية ، كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لاتسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم .

وبالجملة ، فإنا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ، ولا يصونها الجهل ، بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته كمثل أعمى يقود أعمى ، مصيرهما أن يقعا فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق !.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حجاب النساء

سبق لى البحث فى الحجاب ، بوجه إجمالى ، فى كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من أربع سنين مضت ، ردا على «الدوق داركور» ، وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها ، ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ، ولا فى الحد الذى يجب أن يكون عليه ، وهنا اقصد أن أتكلم فى ذلك .

ربما يتوهم ناظر انى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فإنى لا أزال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ماجاء فى الشريعة الإسلامية ، وهو على مافى تلك الشريعة يخالف ماتعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه عملا بالاحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة .

والذى أراه فى هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية . وبين هذين الطرفين وسط سنبينه ـ هو الحجاب الشرعى ـ وهو الذى ادعو إليه .

إنى أشعر أن القارئ الذى سار معى إلى هذه النقطة ، وتبعنى فيما دعوته إليه من وجوب تربية النساء ، ربما يستجمع قواه لمقاومتى فيما أطلب من الرجوع بالحجاب إلى الحد الشرعى ويستنجد جميع الأوهام التى خزنها فى ذهنه أجيالا طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل إلى أن تبقى زمنا طويلا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل امره إلى الخراب والتهدم ، وقد انقض أساسه وانحلت مواده ، ووصل حاله من الاضمحلال إلى أنك ترى فى كل سنة تمر جزءا منه ينهار من نفسه ؟ أليس هذا كله صحيحا ؟ أليس حقا أن الحجاب فى هذه السنين الأخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد أن النساء فى كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بأنفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشئونهن ويطلبن ترويح النفس حيث يصفوا الجو ويطيب الهواء ، ويصحبن ازواجهن فى اسفارهم ، ونرى أن هذا التغير حدث فى عائلات كانت أشد الطبقات تحرجا من ظهور النساء ؟ إذا قارنا بين مانشاهد اليوم وبين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها ، وأن يرى طولها أجنبى ، وكان إذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلا حتى لايراها أحد من الناس ، وحيث كانت أم الرجل أو أخته أو بنته تستحى أن تجلس معه على مائدة واحدة . إذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلاشك أن هذه العادة آخذة فى الزوال من نفسها .

وكل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم . قال «لاروس»[٢٧٦] تحت كلمة خمار: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية» . وقال : «ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن ، وحافظ عليه عندما دخل فى البلاد ، فكن يغطين رءوسهن إذا خرجن فى الطريق فى وقت الصلاة . وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار كما هو الآن نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى اسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها» .

ومن هذا يرى القارئ أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا ، ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه ، ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقى . وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية .

* * *

(٢٧٦) المراد بيير لاروس (١٨١٧ ـ ١٨٧٥ م) عالم النحو الفرنسى واللغوى صاحب القاموس الذى اشتهر باسمه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١)

الجهة الدينية

لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر ، لأن الأوامر الإلهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولامناقشة ، لكننا لانجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها واخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لانرى مانعا من البحث فيها ، بل من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها ..

جاء فى الكتاب العزيز :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت إيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن)[١٩] .

أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض اعضاء من جسمها أمام الاجنبى عنها ، غير أنها لم تسم تلك المواضع ، وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ، ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين . جاء فى ابن عابدين[٢٧٨] : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل ، فى الأصح ، خلا الوجه والكفين والقدمين

---

(٢٧٧) النور : ٣٠ ومابعدها .

(٢٧٨) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن حامد (١١٩٨ ـ ١٢٥٣ م) صاحب كتاب [رد المحتار على الدر المختار] فى فقه المذهب الحنفى ، وهو الذى يقتبس منه المؤلف هنا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا القدر لأن المرأة لاتجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وبخاصة الفقيرات منهن »[٢٨٥] .

خولت الشريعة للمرأة ما للرجال من الحقوق ، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق فى إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق شخصيتها ؟.

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها أو تقف من وراء ستار أو باب ويقال للرجل ها هى فلانة التى تريد ان تبيعك دارها أو تقيمك وكيلا فى زواجها مثلا ، فتقول المرأة : بعت ، أو وكلت ، ويكتفى بشهادة شاهدين من الاقارب أو الأجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت ، والحال أنه ليس فى هذه الأعمال ضمانة يطمئن لها أحد وكثيرا ماأظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه الأحوال ، فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها ، واجرت املاكها بدون شعورها ، بل تجردت من كل ماتملكه على جهل منها ، وذلك كله ناشئ من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها .

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال ؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة ان تفلح أرضها وتحصد زرعها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها إذا اجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه ؟ .

وبالجملة ، فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الإنسانى ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول إليه ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق ، وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع ، ولم يقسم الكون بينهما قسمة أفراد ، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء . بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز ، فكيف يمكن ، مع هذا ، لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال إذا حظر

---

(٢٨٥) صحيفة ٩٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليها ان تقع تحت أعين الرجال إلا من كان من محارمها ؟ لاريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل ، لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما تشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن .

إذا وقفت المرأة فى بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا كيف انه يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما بهم فى هذه المسألة ، متساهلون فى رعاية الواجب فيها ، فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه وهى مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة ، وذلك منهم استسلام للعوائد ، وليس يخاف مافى هذا التسامح من الضرر الذى يصعب استمراره فيما اظن ، ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التى تخاصمه ، وله فى ذلك فوائد كثيرة ، من أهمها صحة التمسك بقولها ، ولا أظن أنه يسوغ للقاضى أن يحكم على شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له ، ولا اظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك ، بل أقول ان أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم ، خصوصا فى الجنايات ، وإلا فأى معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده ؟ وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها إذا لم يكن معروفا بشخصه ؟.

والحكمة فى ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة ، كما مر ظاهرة ، وهى تمكن القاضى من التفرس فى الحركات التى تبدو على الوجه والعلامات التى تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لاريب ان ماذكرنا من مضار التحجب يندرج فى حكمة اباحة الشرع الإسلامى لكشف المرأة وجهها وكفيها . ونحن لانريد أكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب أيضا على أنه يجوز للخاطب ان ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، بل قالوا بندبه ، عملا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لأحد الانصار :ـ وكان قد خطب امرأة ـ « أنظرت إليها ؟ » قال : لا ـ قال : « انظر إليها فإنه أحرى ان يؤدم بينكما » .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه هى نصوص وروايات الأحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى ان الله تعالى قد اباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التى لايصعب ادراكها على كل من عقل .

هذا حكم الشريعة الإسلامية ، كله يسر لاعسر فيه ، لا على النساء ولا على الرجال ولايضرب بين الفريقين بحجاب لايخفى مافيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى اداء كل منهما ماكلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش .

اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا أخالها صحيحة ، لأنه لا أصل يمكن ان ترجع إليه هذه الدعوى . وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الاشكال والملابس ؟ .

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال ، وليس على النساء تقديره ، ولاهن مطالبات بمعرفته وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره ، كما أنه على من يخافها من النساء ان تغض بصرها ، والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة إلى كل من الفريقين بغض البصر على السواء ، وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

عجبا ! لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل اعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة اقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال ان يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوفا ان ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟! إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافا منه بأن المرأة أكمل استعدادا من الرجل – فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم المعروف ؟.

على أن البرقع والنقاب مما يزيدان فى خوف الفتنة ، لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من خلفه العيوب ، والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والاصداغ وصفحات العنق ـ هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر ! ولو ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خلقها مايرد فى الغالب البصر عنها .

ليست أسباب الفتنة مايبدو من اعضاء المرأة الظاهرة ، بل من أهم أسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها ومايبدو من الافاعيل التى ترشد عما فى نفسها ، والنقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ماتعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ماتشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب ، أما لو كان وجهها مكشوفا فإن نسبتها إلى عائلتها أو شرفها فى نفسها يشعرانها الحياء والخجل ويمنعانها من ابداء حركة أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات النظر إليها .

والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية ، لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده . ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة فى كثير من البلاد الإسلامية ، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التى لم تتدين بدين الإسلام .

إنما من مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شىء من التبرقع والانتقاب .

هذا مايتعلق بكشف الوجه واليدين . أما مايتعلق بالحجاب ، بمعنى قصر المرأة فى بيتها ، والحظر عليها أن تخالط الرجال ، فالكلام فيه ينقسم إلى قسمين : مايختص بنساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر فى الشريعة لغير هذين القسمين .

أما القسم الأول فقد ورد فيه مايأتى من الآيات :

(يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم ... وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما)[١٨] .

---

(١٨) الاحزاب : ٥٣ وما بعدها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[٢٨٧]

ولايوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ولا فى كتب التفاسير فى ان هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم ـ أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب ، وبين لنا سبب هذا الحكم ، وهو أنهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين[٢٨٨] .

وأما القسم الثانى فغاية ما ورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبى وهو : « لايخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم » قال ابن عابدين : « الخلوة بالاجنبية حرام إلا لملازمة مديونة هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بخائل . وقيل الخلوة بالاجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن أبى يوسف ليست بتحريم »[٢٨٩] .

وقال : « إن الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرم أو امرأة ثقة قادرة ـ وهى تنتفى أيضا بوجود رجل آخر لم تره »[٢٩٠] .

ربما يقال : ان مافرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء المسلمين كافة ـ فنجيب ان قوله تعالى : (لستن كأحد من النساء) يشير إلى عدم الرغبة فى المساواة فى هذا الحكم وينبهنا إلى ان فى عدم الحجاب حكما ينبغى لنا اعتبارها واحترامها ، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة . وكما لايحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لا يحمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق أو تعطيل لشىء من مصالح الحياة . وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر)[٢٩١] . وقال (وماجعل عليكم فى الدين من حرج)[٢٩٢] وقال أيضا : (يأيها

---

(١٩) الاحزاب : ٣٢ .

(٢٨٨) صحيفة ١٢٦ من [كتاب حسن الاسوة] .

(٢٨٩) صحيفة ٣٢٣ جزء خامس .

(٢٩٠) صحيفة ٣٢٤ جزء خامس .

(٢٩١) البقرة : ١٨٥ .

(٢٤) الحج : ٧٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) [٢٩٣] . ولو كان اتباع الاسوة مطلوبا فى مثل هذه الحالة لما رأينا أحد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجرى فى عائلته على مايخالف الحجاب . واستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بواقعة حربية فلما وصل ذلك الرجل إلى بيت عمر قال : .. فاستأذنت ، وسلمت ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من أدم محشوتين ليفا ، فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها ، وإذا هو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال : « يا أم كلثوم غداءنا ، فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق . فقال : « يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا ؟ قالت : « انى استمع عندك حس رجل » . قال : « نعم ولا أراه من أهل البلد » . قالت فذلك حين عرفت أنه لم يعرفنى ولكن لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » ــ قال : « أوما يكفيك ان يقال : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟! ــ فقال : كل ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا » ! [٢٩٤] وفضلا عن كون الشرع لايوجب ذلك الحجاب فإنه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتى على بيانها فى المبحث الآتى :

* * *

ــ ٢ ــ

الجهة الاجتماعية

إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد ، أو التعلق بالجديد لأنه جديد ، فإننا نتمسك بعوائدنا الإسلامية ونحترمها ، ونرى أنها مزاج الأمة تتماسك به أعضاؤها ، ولسنا ممن ينظر إليها نظره إلى الملابس يخلع ثوبا كل يوم ليلبس غيره ، وإنما

---

(٢٩٣) المائدة : ١٠١ .

(٢٩٤) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبرى جزء خامس .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتها المعاشية . لسنا فى مقام استحسان امر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته ، وإنما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة ، أو مابه قوام حياتنا .

كلامنا الآن فى هل يلزمنا أن نعيش ونحيا أو نقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا والناس من حولنا يتسابقون إلى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهدة القوة ويمرون علينا سراعا ونحن شاخصون إليهم ، إما غير شاعرين بموقفنا وإما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون ، أو من الواجب علينا أن ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا ؟ كيف تقووا وضعفنا ؟ كيف سعدوا وشقينا ؟ ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية فى ديننا وماكان عليه أسلافنا الصالحون ، ثم نقتدى بهم فى استماع القول واتباع أحسنه ، وانتقاء الفعل والأخذ بأفضله ، ونسير فى طريق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ؟ ذلك هو الأمر الخطير الذى وجهنا إليه نظرنا .

هاهى مسألة الحجاب ، مسألة من أهم المسائل ، ولها مكان عظيم فى شئون الأمة إذا ترك القارئ نفسه لعواطفه واستسلم إلى عوائده ظهر له الحجاب فى مظهر حسن ، لأنه ألفه فى صغره ، ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له ، ثم إنه ورثه عن آبائه واجداده ، فلا يستغربه ، بل يميل إليه ميلا غريزيا ليس للعقل فيه مدخل ، وإنما هو حركة ميكانيكية ليس إلا ، وأما إذا نزع من نفسه العوامل التى أحدثت تلك العواطف ، وخلع ما ألبسه اياه أسلافه من اردية الوراثة ، وبحث فى المسألة من جميع جهاتها بحيث من لم يتأثر إلا بالتجربة التى تجرى فى الوقائع الصحيحة ، وحصل لنفسه رأيا من ملاحظاته الشخصية ، وكان ممن تنجذب نفسه للحق وتنبعث إلى السعى للوقوف عليه وتأييده ، لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع ، وكان لايغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين ، وإنما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس ـ فعند ذلك يرى ان المرأة لاتكون ولايمكن ان تكون وجودا تاما إلا إذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معا ونمت ملكاتها إلى أقصى درجة يمكنها ان تبلغها ، ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها .

بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التى تترتب عليها فى شئونها نفسها وشئون بيتها ، وفى الاجتماع الذى هى فيه ، وذكرنا ان من أكبر أسباب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء وأن تربية الطفل لا تصلح إلا إذا كانت أمه مربّاة وقررنا أن الولد ، ذكرا كان أو أنثى ، لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة إلا من طريقين : الوراثة ، والتربية ، واستدللنا على أن الولد يرث من أمه قدر ما يرث من والده على الأقل ، وأن تأثير الأم فى تربية الطفل بعد ولادته أعظم من تأثير أبيه . ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم إذا استمر حجاب النساء على ماهو عليه الآن ، حتى إذا انتهى القارئ من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض ، وكيف ان اصغرها يتوقف عليه أعظمها :

إذا أخذنا بنتا وعلمناها كل مايتعلمه الصبي فى المدارس الابتدائية ، وربيناها على أخلاق حميدة ، ثم قصرناها فى البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك أنها تنسى بالتدريج ما تعلمته ، وتتغير أخلاقها على غير شعور منها ، وفى زمن قليل لانجد فرقا بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا . ذلك لأن المعارف التى يكسبها الإنسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها ، ولذلك لايكون علمه فيها علما تاما كاملا ، وإنما يتم له شيء من ذلك إذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبي يحفظ أسماء الاشياء أكثر مما يفهم معانيها ، وأكبر فائدة يستفيدها فى هذا الطور من التعليم إنما هى التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فإن وقف سير التعليم فى هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئا فشيئا ، وكان ما مضى من الوقت فى التعليم زمنا ضائعا .

ولما كان بين السن الذى تحجب فيه المرأة ــ وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ــ هو السن الذى يبتدئ فيه الانتقال من الصبا إلى الرجولية ، وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل إلى اختبار العالم والبحث فى الحياة وما تستدعيه ، وهو السن الذى تظهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات ، وهو السن الذى يتعلم فيه الإنسان نوعا آخر من العلم أنفس مما تعلمه فى المدارس ، وهو علم الحياة ، وطريق تحصيل ذلك العلم إنما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم ، وفى هذا السن يبتدئ الإنسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته ، وفى هذا السن يبتدئ استعداد كل شخص وميله وكفاءته فى الظهور ، فيندفع إلى الأعمال اندفاع الماء فى المنحدرات ، وهو سن الآمال والرغائب والنشاط ، فإن حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها ، بل رجعت القهقرى ، وفقدت كل ما كان يزين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفسها ، ونسيت كل معارفها ، وخابت كل مساعيها ، وضاعت آمالها وآمال الناس فيها . ولا ذنب عليها فى ذلك ، فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال .

ربما يقال إن فى طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها ، وتتم دراستها فى بيتها ، وهو وهم باطل . فإن الرغبة فى اكتساب العلم والتشوق لاستطلاع ما عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل مايستميل النفس إلى المطالعة والدرس لايتوفر للمرأة مع حجابها ، ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولاتعرف إلا مايقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل ، فلا يصل إليها منه شىء ، وان وصل إليها بعضه فلا يصل إلا محرفا مقلوبا . أما إذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى فإنها تكتسب بالنظر فى حوادثه وتجربة مايقع فيه من معارف غزيرة تنبت فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهر الحياة . وقد يكفى فى إعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى ، وربما يمكنها أن تستغنى عن تعلم تلك المعارف الأولى إذا حسنت الفطرة وحادت القريحة .

وعلى فرض أن المرأة يمكنها فى احتجابها ان تستكمل مانقص منها علما وأدبا بقراءة الكتب ، فمن البديهى أن كل ماتحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا إخوتنا الصبيان كما نعاملها وحجبناهم فى البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ، ولابد أن يأتى يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم . فإذا يكون من الخطأ أن نتصور أننا متى علمنا بناتنا جاز لنا أن نحجبهن متى بلغن سنا ، خصوصا وأن مجرد ذلك التعليم الأول لايكفى فى التوقى من الضرر ، لأن الضرر فى الحجاب عظيم . وهو ضياع ماكسبنه بالتعليم ، وحرمانهن من الترقى فى مستقبل العمر . والأمر فى ذلك واضح لايحتاج إلى دليل ، ويكفينا أن نرجع إلى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه فى الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا أننا كنا أشبه بالأطفال لانكاد نعلم شيئا من العالم ولانعرف للحياة قيمة ولانميز كمال التمييز مالنا وما علينا ولانمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة فى مجاهدة أنفسنا ، وان أكبر عامل له أثر فى تكميلنا هو استمرار تعلمنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء وأن تربية الطفل لا تصلح إلا إذا كانت أمه مربّاة وقررنا أن الولد ، ذكرا كان أو أنثى ، لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة إلا من طريقين : الوراثة ، والتربية ، واستدللنا على أن الولد يرث من أمه قدر ما يرث من والده على الأقل ، وأن تأثير الأم فى تربية الطفل بعد ولادته أعظم من تأثير أبيه . ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم إذا استمر حجاب النساء على ماهو عليه الآن ، حتى إذا انتهى القارئ من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض ، وكيف ان اصغرها يتوقف عليه أعظمها :

إذا أخذنا بنتا وعلمناها كل مايتعلمه الصبى فى المدارس الابتدائية ، وربيناها على أخلاق حميدة ، ثم قصرناها فى البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك أنها تنسى بالتدريج ما تعلمته ، وتتغير أخلاقها على غير شعور منها ، وفى زمن قليل لانجد فرقا بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا . ذلك لأن المعارف التى يكسبها الإنسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها ، ولذلك لايكون علمه فيها علما تاما كاملا ، وإنما يتم له شىء من ذلك إذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبى يحفظ أسماء الاشياء أكثر مما يفهم معانيها ، وأكبر فائدة يستفيدها فى هذا الطور من التعليم إنما هى التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فإن وقف سير التعليم فى هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئا فشيئا ، وكان ما مضى من الوقت فى التعليم زمنا ضائعا .

ولما كان بين السن الذى تحجب فيه المرأة ــ وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ــ هو السن الذى يبتدئ فيه الانتقال من الصبا إلى الرجولية ، وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل إلى اختبار العالم والبحث فى الحياة وما تستدعيه ، وهو السن الذى تظهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات ، وهو السن الذى يتعلم فيه الإنسان نوعا آخر من العلم أنفس مما تعلمه فى المدارس ، وهو علم الحياة ، وطريق تحصيل ذلك العلم إنما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم ، وفى هذا السن يبتدئ الإنسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته ، وفى هذا السن يبتدئ استعداد كل شخص وميله وكفاءته فى الظهور ، فيندفع إلى الأعمال اندفاع الماء فى المنحدرات ، وهو سن الآمال والرغائب والنشاط ، فإن حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها ، بل رجعت القهقرى ، وفقدت كل ما كان يزين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفسها ، ونسيت كل معارفها ، وخابت كل مساعيها ، وضاعت آمالها وآمال الناس فيها . ولا ذنب عليها فى ذلك ، فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال .

ربما يقال إن فى طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها ، وتتم دراستها فى بيتها ، وهو وهم باطل ، فإن الرغبة فى اكتساب العلم والتشوق لاستطلاع ما عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل مايستميل النفس إلى المطالعة والدرس لايتوفر للمرأة مع حجابها ، ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولاتعرف إلا مايقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل ، فلا يصل إليها منه شىء ، وان وصل إليها بعضه فلا يصل إلا محرفا مقلوبا . أما إذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى فإنها تكتسب بالنظر فى حوادثه وتجربة مايقع فيه من معارف غزيرة تنبت فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم فى جميع مظاهر الحياة . وقد يكفى فى إعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى ، وربما يمكنها أن تستغنى عن تعلم تلك المعارف الأولى إذا حسنت الفطرة وحادت القريحة .

وعلى فرض أن المرأة يمكنها فى احتجابها ان تستكمل مانقص منها علما وأدبا بقراءة الكتب ، فمن البديهى أن كل ماتحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا إخوتنا الصبيان كما نعاملها وحجبناهم فى البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ، ولابد أن يأتى يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم . فإذا يكون من الخطأ أن نتصور أننا متى علمنا بناتنا جاز لنا أن نحجبهن متى بلغن سنا ، خصوصا وأن مجرد ذلك التعليم الأول لايكفى فى التوقى من الضرر ، لأن الضرر فى الحجاب عظيم ، وهو ضياع ما كسبنه بالتعليم ، وحرمانهن من الترقى فى مستقبل العمر ، والأمر فى ذلك واضح لايحتاج إلى دليل ، ويكفينا أن نرجع إلى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه فى الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا أننا كنا أشبه بالأطفال لانكاد نعلم شيئا من العالم ولانعرف للحياة قيمة ولانميز كمال التمييز مالنا وما علينا ولانمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة فى مجاهدة أنفسنا ، وان أكبر عامل له أثر فى تكميلنا هو استمرار تعلمنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتربية عقولنا ونفوسنا استمرارا لا انقطاع معه ، وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث .

وفى الحقيقة ان تربية الإنسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهى عنده ، فهى لاتنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الإنسان نفسه فى اكتسابه فى سنين معدودة ثم يقضى حياته بعد ذلك فى الراحة .

التربية ليست ذلك الشىء البسيط الذى يفهمه عامة الناس حيث يتصورون أنها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة فى « بروجرامات » المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها إلا البطالة والجمود ، وإنما التربية هى العمل المستمر الذى تتوصل به النفس إلى طلب الكمال من كل وجوهه . وهذا العمل لابد منه فى جميع أدوار الحياة حيث يبتدئ من يوم الولادة ولاينتهى إلا بالموت .

وإذا أراد القارئ ان يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب على وجه لايبقى للريب معه مجال فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم ، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب البيانو ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، وبحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية مع جهلها قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فإذا تعاملنا غلبت الثانية الأولى .

ومن هذا نرى أغلب نساء نصارى الشرق ، وإن لم يتعلمن فى المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن ، فهن يعرفن لوازم الحياة ، لكثرة مارأين وسمعن باختلاطهن بالرجال فقد وردت على عقولهن معان وأفكار وصور وخواطر غير مااستفدنه من الكتب ، فارتفعن بفضل هذا الاختلاط إلى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع أنهن من جنس واحد واقليم واحد .

نرى فى المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعى مايؤهلها لأن تكون مساوية لغيرها من الأمم الأخرى ، لكنها اليوم فى حالة انحطاط شديد ، وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها .

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء إلى إفساد صحتهن فألزمناهن القعود فى المساكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحرمناهن الهواء والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية .

ليس فينا من لايعرف أن من النساء من لايفارقن بيوتهن لا ليلا ولا نهارا بل يلازمنها ولايرين لهن شريكا فى الوجود إلا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها ، ولا يرين أزواجهن إلا عند النوم ، لأنهم يقضون نهارهم فى اشغالهم ويقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم أو فى الأماكن العمومية .

ليس فينا من لا يعرف ان نساء كثيرات فقدن صحتهن فى هذه المعيشة المنحطة وفى هذا السجن المؤبد ، وأنهن عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئا من لذة هذه الحياة الدنيا .

لذلك كان أغلب نسائنا مصابا بالتشحم وفقر الدم ، ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزا وهى فى ريعان شبابها . كل ذلك منشؤه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !.

على أن القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لايمكن الاستدلال عليه ، لأنه لم يقم أحد إلى الآن بإحصاء عام يمكن أن يعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة فى البلاد التى تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفى البلاد الأخرى التى تتمتع فيها بحريتهن ، ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفى فى المسألة ، لأن ازدياد الفساد فى البلاد ونقصه مما يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها .

ومن المعروف أن لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلا عظيما فى فساد اخلاقها وصلاحها ، ولهذا نرى الفساد يختلف فى بلاد أوروبا بين بلد وآخر اختلافا ظاهرا ، ونرى أيضا مثل هذا الاختلاف بين البلاد التى لاتزال فيها عادة الحجاب باقية . بل نرى اختلافا كبيرا بين زمن وزمن فى بلد واحد .

والتجارب ترشد إلى أمر يمكن اخذه دليلا على أن الاطلاق أدنى بالنساء إلى العفة من الحجاب ، فمن المشاهد الذى لاجدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية وهن أكثرهن اختلاطا بالرجال حتى أن البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ، ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا أن نساءها احفظ للاعراض وأقوم اخلاقا من غيرهن ، وينسبون صلاحهن إلى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء فى جميع ادوار الحياة .

ومن المشاهد الذى لانزاع فيه أيضا ان نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختلاطهن بالرجال على مايشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد ، وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة ، والسبب فى ذلك أن الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فإذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة ، بل لو عرض عليها شىء من هذا فإنما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة يحدث فيها ماقد يشعر كل واحد منهما بانجذاب إلى الآخر : وهذا هو مامنعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق . أما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الصنف ، من غير شعور ولاتعمد ولا نية سيئة ، وإنما هو أثر منظر الرجل الأجنبى ، لأنه قد وقر فى نفسها ألا تراه ولايراها ، فمجرد النظر إليه كاف فى إثارة هذا الخاطر .

وقد شاهدت مرارا ، كما شهد غيرى ، هذا الأثر عينه فى الرجال ، فرأيت أن الرجل الذى لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوى لايملك نفسه إذا جلس بينهن ، فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل فى محاسنهن ، وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة ، وربما طلب الوسائل لملامستهن بيده أو مماستهن بكتفه ويندفع إلى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين كأنه يظن ــ بل هو يظن بالفعل ــ أنه لامعنى لاجتماع الرجل مع المرأة فى مكان واحد إلا أن يتمتع كل منهما بشهوة مع الآخر ، بخلاف الرجل الذى اعتاد على مخالطة النساء فإنه لايكاد يجد فى نفسه أثرا من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ، ولايشعر بأدنى اضطراب فى حواسه ولا فى مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن فى الرجال وفى النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت . وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة إذا رأت رجلا فى الطريق أو دعتها الضرورة لمخاطبته تتصنع فى حركاتها وصوتها ما تظن أنه يروق فى عين الرجل ، والرجل كذلك .

قد شاهدت ، وشاهد كل إنسان ، مايخالف ذلك فى بلاد أوروبا وفى الآستانة وفى القرى المصرية وبين الأعراب فى البادية حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولايلتفت أحدهم إلى الآخر .

ولا ريب ان استلفات الذهن دائما إلى اختلاف الصنف من أشد العوامل فى اثارة الشهوة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبديهى ان المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والاجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة ، فإن عفة هذه قهرية اما عفة الأخرى فهى اختيارية ، والفرق كبير بينهما . ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد انهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران ؟ .

أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى الحبس ؟ فإن كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال إنهن عفيفات ؟ إن العفة هى خلق النفس تمتنع به من مفارقة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الإلهى إنما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لابما يستكره عليه من الأعمال . فالعفة التى تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ومما يقع تحت اختيارهن لا أن يكن مستكرهات عليها ، وإلا فلا ثواب لهن فى مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » .

والحقيقة اننا نعمل عمل من يعتقد ان النساء عندنا لسن أهلا للعفة . أليس من الغريب ألا يوجد رجل فينا يثق بامرأة ابدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن امهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة انفسهن ؟ أيليق ألا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسىء الظن بهن إلى هذا الحد ؟ .

إنى أسأل كل إنسان خالى الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها إنسان له من خاصة الإنسان مالنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وحواس ، وهل سوء الظن فى المرأة إلى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟.

والعاقل يرى ان الاحتياط الذى يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهما بلغ من الدقة لايفيد شيئا إن لم يصل الرجل إلى امتلاك قلب امرأته ، فإن ملكه ملك كل شىء منها ، وان لم يملكه لم يملك منها شيئا ، ذلك لأنه ليس فى استطاعة رجل أن يراقب حركات امرأته وسيرها فى كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج احدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل ان يملك جسم امرأته وحده إذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع ان يمنعها ان تتصرف فيه وتبذله لأى شخص تريد ؟ فإذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ومالت إليه بقلبها وودت ان تواصله لحظة أفلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعد هذا ، فى الحقيقة ، من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة فى هذه اللحظة ؟ وهل يعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لاتعاقب ولاتقيم الحد على زنا العين والقلب لأن العقوبات والحدود لاسلطان لها على الخواطر والقلوب ، ولكن فى نظر أهل الأدب والتقوى لاعبرة للبعد بين الاجساد إذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ، ما الذى فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى فى داخل البيوت مما ينافى العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد إلى ماوراء تلك الحجب ؟ كلا !.

ربما يقول قائل : إن ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقا ، وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشارا ، بل ربما كان الفساد فى الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلا ولامنشأ لذلك إلا رقة الحجاب . فالحالة القديمة على مافيها كانت أصون للاعراض ، وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التى طرأت على النساء .

فنجيب عن ذلك بأننا لاننكر ان بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معا وجدت سبيلا من تخفيف الحجاب إلى تعارف بعضها ببعض واتيان ماتميل إليه من المنكر ، بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التى سار بها إلى الآن ــ والنفوس على ماهى عليه ــ لعمت البلوى وازداد الفساد انتشارا .

غير ان السبب فى ذلك ليس هو تخفيف الحجاب ، بل هو راجع إلى أمور كثيرة يجمعها : الجهل وسوء التربية .

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش ، وهو الذى يسهل على امرأة ذات مكانة فى بيتها وقومها ان تطيل نظرها إلى شاب يمر فى طريقها ، وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به إليها ، وسوء التربية هو الذى يدفع بها إلى الاتفاق معه على التلاقى بل والتواصل قبل ان يدور كلام بينه وبينها ، وإنما اركان عقد ذلك الاتفاق هى نظرات واشارات لاتفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولاعن درجة من العرفان ولاتدل على حالة نفسية ولاعقلية ولاجسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين .

سوء التربية هو الذى يخرق كل حجاب ، ويفتح على المرأة من الفساد كل باب ، وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذى يخشى معه ان تسرى العدوى من امرأة إلى امرأة ومن طبقة إلى طبقة ، فقد نرى ان المحجبات مهما بالغن فى التحجب لايستنكفن أن يختلطن بنساء أحط منهن فى الدرجة وأبعد عن التصون والعفة ، فسيدة المنزل لاترى بأسا فى مخالطة زوجة خادمها ، بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله إليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها ، ولاتأنف التفتح فى القول مع الدلالات وبائعات الأقمشة ، بل قد يطوحها الجهل إلى الاختلاط بنسوة لاتعرف شيئا من حالهن ولا من أى مكان أتين ولا بأى خلق من الاخلاق تخلقن واشنع من هذا كله واشد منه فعلا فى إفساد الاخلاق ان نساء من المومسات اللاتى يحملن تذكرة رسمية يدعون فى الأفراح ويرقصن تحت أعين الأمهات والبنات والكبار والصغار .

هذا مايأتى من سوء التربية ، وهو من أشد العوامل فى تمزيق ستار الأدب ، وليست رقة الحجاب بشىء فى جانب هذا كله .

طرقت ديارنا حوادث ، وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة ، ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا إلى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم ، خصوصا ان كان ذلك إرضاء لشهوة أو اطلاقا من قيد ، فكان من ذلك ان كثيرا من أعلياتنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن فى الخروج إلى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك ، وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن ، وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الأخلاق .

تلك حالة طرأت للاسباب التى تقدمت ، وتبعها من العواقب مابيناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولامن المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع إلى تغليظ الحجاب ، بل صار من متممات شئوننا ان نحافظ عليها ونتقى تلك المضار التى نشأت عنها ، وذلك هو مانستطيعه أيضا .

أما أنه ليس من مصلحتنا ان نمحو هذه الحالة فلما قدمناه فى مضار الحجاب على الوجه المعروف ، وأما أننا لانستطيع ذلك فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقا لاتزال موجودة ، وهى تزداد بمرور الزمن رغما عنا ، ولأننا قد وجدنا من انفسنا ميلا إلى حسن المعاملة فى معاشرة النساء ، وزين فى انفس الكثير منا حب المجاملة فى مرضاتهن ، ونشأت لهن فى قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل ، وأحس النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن إليه من الحرية والاطلاق حقا من الحق وضروريا من ضروريات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعيشة ، فلايسهل على الرجل ان يقضى على امرأته اليوم بما كان يقضى به من قبل أربعين سنة .

والذى يجب علينا هو معالجة المضار التى يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجاب ، ولا توجد طريقة انجع فى ذلك العلاج إلا التربية التى تكون هى الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم فى أية درجة وصلت إليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض : إن التربية والتعليم يصلحان اخلاق المرأة ، وأما الاطلاق فربما زاد فى فسادها . فنجيب : إن الاطلاق الذى نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع اجنبى ، وفى هذا الحظر ما يكفى لاتقاء المفاسد التى لاتتولد إلا من الخلوة ، أما الاطلاق فى نفسه فلا يمكن أن يكون ضارا أبدا متى كان مصحوبا بتربية صحيحة ، لأن التربية الصحيحة تكون أفرادا أقوياء بأنفسهم يعتمدون على أنفسهم ويسيرون بأنفسهم ، فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره ، ومن نقصت تربيته احتاج إلى الغير فى كل أموره ، فالاستقلال فى النساء كالاستقلال فى الرجال يرفع الأنفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس : لذلك يجب ان يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء .

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان وهما مطمح آمال كل أمة تسعى إلى سعادتها ، وهما من أشرف الوسائل لإبلاغها من الكمال ما اعدت له ، فكيف يمكن لعامل أن يدعى ان لهذين العاملين أثرا آخر سيئا فى انفس النساء ؟ ومن زعم أن التربية واستقلال الإرادة مما يساعد على فساد الأخلاق فى المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التى لايخلو منها أمر من الأمور النافعة فى العالم ، فإن لكل نافع ضررا إذا أسيء استعماله .

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة ، وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره ، فهل ذلك يحمل احدا من الناس على أن يقول : ان من الصواب ان لايعلم الرجال شيئا خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم ، وان من الواجب ان يتركوا فى الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن ان عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله ، فإذا كان اجماعنا قد انعقد على ان لاخير للرجال فى الجهل والاستعباد ، وأن لاسبيل لهم إلى بلوغ درجات الفضل إلا بالعلم وحرية الفكر والعمل ، فما لنا نختلف فى هذه القضية نفسها إذا عرض ذكر المرأة ؟ وأى فرق بين الصنفين فى الفطرة والخلقة ؟.

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة فى النساء ، وفى الحرص عليها ، وفى ابتداع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوسائل لحفظ ماظهر منها ، وتفخيم صورتها ، حتى جعلنا كل شيء فداءها ، وطلبنا ان يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شيء فى المرأة ، وابهى حلية تتحلى بها ، ولكن العفة لاتغنى شيئا عن بقية الصفات والملكات التى يجب ان تتحلى نفس المرأة بها ، من كمال العقل ، وحسن التدبير ، والخبرة بتربية الأولاد ، وحفظ نظام المعيشة فى البيت ، والقيام على كل مايعهد إليها من الشئون الخاصة بها . بل نقول : إن لهذه الصفات دخلا كبيرا فى كمال العفة ، وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لاينقص فى ضرره وفى الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على ان عقد الزواج وحده هو الذى يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة ، وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت ، ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة ، وكمال النفس الإنسانية ، فالعمل على مايخالفه قبيح مذموم بلا ريب ، غير ان تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالا أخرى وانزلتها من الشناعة منزلة لاتنحط عن منزلة الخنا ، ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليها لأنها اعتبرت ان لتلك الأعمال من الضرر بالنظام ماهو أشد من ضرر الزنا ، ولنضرب مثلا بجريمة القتل ، فإنها أعظم من جريمة الزنا فى نظر الدين والقانون ، فلم لم نتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟.

إنا معرضون فى كل ساعة تمر من حياتنا إلى مصائب لاتحصى وهذا لايمنعنا من ان نتحرك ونقتحم الاخطار فى الاسفار لنحصل من رزق الله ماتحتاج إليه ، إنا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا ، فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف ، وغيرها من الجرائم ، تزعج الساكن وتقلق المطمئن ، ومع ذلك فإنا نحتمل مصائبها ، ونسلم لحكم القدر فيها ، ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة ، من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة ، فلم لايكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التى لايخلو منها مجتمع انسانى ؟ ولم نتخيل أنها أشنع وافظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها مالم نتخذه لمنع غيرها ؟.

وعلى أى حال فليس من الجائز ان نأتى مافيه ضرر محقق لنتقى به ضررا وهميا . فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع ، قد يكون وربما لايكون ، أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهما ضرر محقق لاحق بها حتما ، وباليته اقتصر عليها ، ولكنه يتعداها إلى كل ما يقع تحت رعايتها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتوهم احدنا ان امرأته ربما تميل إلى غيره ان رفع الحجاب عنها ، فلذلك يزج بها وراء الأبواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك أنه قد استراح من الوساوس ، وهو لايدرى ما ربما يأتيه من ... حيث لايدرى فلم يفده حرصه شيئا فى الحقيقة ، ومع هذا فهو بعمله قد قتل نفسا حية وأفسد نفوسا كثيرة ممن تتولاهم زوجته فى بيته فى سبيل مايظنه راحة لنفسه .

توهم كثير ممن سبقنا مثل ماتوهمنا ، وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا ، بل فاقونا فى التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم . وانى أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان أوروبا فى القرون الوسطى ، وهى ما كان يسمى عندهم « بنطاق العفة » ، وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ، ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه فى جيب الرجل دائما ، ولكن هذا لم يمنع النساء من ان يمنحن عشاقهن مفتاحا مصطنعا ، ثم مالبث هؤلاء الأمم ان ادركوا خطأهم ، وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها ، ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا فى قياس أعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم ، وادركوا ان سعادتهم لاتتم بما ينالون من ثمار ذلك إلا إذا شاركهم نساؤهم فى مساعيهم وعاونهم فى لم شعثهم وتكميل نقصهم فأعدوهن بالتربية والعلم إلى ما أملوا منهن ، فافتككن من أسرهن وتمتعن بحريتهن وسرن مع رجالهن يعاونهم فى الحياة ويمددنهم بالرأى فى كل امر ، ولست مبالغا ان قلت ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الأصول الثابتة إنما شيد على حجر أساسى واحد هو المرأة .

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهن فى مخالطتهم قاصرا على المزايا التى أشرنا إليها ، بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة فى تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد .

تدخل بيت الغربى من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاما وأكمل ترتيبا وأجمل أثاثا من بيت الشرقى من أهل طبقته ، ومع ذلك تجد نفقة الغربى أقل من نفقة الشرقى بكثير .

انظر إلى الواحد منا تجد مسكنه لابد ان يكون قسمين قسم للرجال وآخر للنساء ، فإن أراد أن يبنى بيتا فعليه ان يهيئ مايكفى لبناء بيتين فى الحقيقة ، وإذا استأجر بيتا فهو إنما يستأجر فى الواقع بيتين ، ويتبع ذلك مايلزم لكل منهما من الأثاث والفرش ، ولابد له من فريقين من الخدم ، فريق يخدم الرجال فى القسم المختص به ، والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت ، ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال ، لأنه ليس من الجائز فى عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته فى عربة واحدة ، وهو مضطر لأن يزيد فى النفقة للطعام لأنه إذا أتى ضيف واحد ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رجلا كان أو امرأة ، وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفى ، وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولا سبب لها إلا تشديد الحجاب على النساء .

هل يظن المصريون ان رجال أوروبا ، مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على مانشاهده بأعيننا ، وان تلك النفوس التى تخاطر فى كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالى وتفضل الشرف على لذة الحياة ، هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التى نعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ؟! هل يظنون ان أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيرا فيه ؟ ـ كلا ! . وإنما الافراط فى الحجاب من الوسائل التى تبادر عقول السذج وتركن إليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل ان المرأة انسان من نوعه ، لها ماله وعليها ماعليه ، وان لاحق لأحدهما على الآخر بعد توفية مافرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه إلا مايعطيه كل من نفسه بمحض إرادته وحسن اختياره .

متى تهذيب العقل ورق الشعور فى الرجل عرف ان حجاب المرأة إعدام لشخصها ، فلا تسمح له ذمته بعد ذلك أن يرتكب هذه الجريمة توسلا إلى مايظنه راحة بال واطمئنان قلب ؛ متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه أن لا سبيل إلى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجال .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل ادرك ان ألذ شىء تشتاق إليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد الهوى ونزوات الشهوة فيسعى جهده فيما يقويه ويشد عراه ويبذل مافى وسعه للمحافظة عليه .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لاتقتنع نفساهما بالاختلاط الجسدانى وحده بل يصير أعظم همهما طلب الائتلاف العقلى والوحدة الروحية .

ان طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد ، معادية للاستعباد ، مياله إلى سوق القوى الإنسانية فى طريق واحد وغاية واحدة . فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلا لابد ان ينال منه النساء نصيبهن ، فمن الواجب علينا أن نمد إليهن يد المساعدة ونعمل بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة واليتيم » . ولاشىء أدخل فى باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعدادها بالتعليم والتربية إلى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ، وإلا من حسن المعاملة واللطف فى المعاشرة ، فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة إكراه وقسوة . هذا ماتفرضه علينا الإنسانية وتطالبنا به الشريعة ، وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا اداؤها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها .

وقبل ان اختم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب على ان أنبه القارئ إلى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة ، والنساء على ماهن عليه اليوم ، فإن هذا الانقلاب ربما تنشأ عنه مفاسد جمة لايتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى ، وإنما الذى أميل إليه هو اعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير :

فيعودون بالتدريج على الاستقلال ، ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لاثوب يختفى دونه الجسم ، ثم يعودن على معاملة الرجال من أقارب وأجانب ، مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الآداب تحت ملاحظة أوليائهن . عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك ، اللهم إلا فى أحوال مستثناة لاتخلو منها محجبة ولا بادية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المرأة والأمة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على ان يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها ، يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم ، بل فى أهم دور من تاريخها .

إنى لا أجد فى ماضيها عصرا انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام فى انحاء البلاد ، وتهيأت الأسباب للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها زمن حتى صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ماهى فى هذا الزمن ، فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء ، حتى فاض من منبعه إلى جميع انحاء المسكونة ، فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطئه بقدمه ، وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يدع وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة ، وان أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فإنه إنما يسعى إلى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها ، وبأى طريقة يرى النجاح فيها ، وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليها ، فهو لايطلب الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر ، لأنه يجد ذلك متوفرا له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية ، وإنما الذى يحمل الانكليزى على ان يسكن الهند والفرنساوى الجزائر والروسى الصين والألمانى زنجبار هو حب المنفعة ، والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لايعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !.

فإذا صادفوا أمة متوحشة ، مهما كان بأسها ، أبادوا أهلها واهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا واستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى أفريقيا ، حيث لايرى أثر لأهالى البقاع التى احتلها الأوروباوى ، لأنهم خرجوا منها طوعا أو كرها . وان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف ، لكن لايمضى زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة ، لأنهم أكثر مالا وعقلا وعرفانا وقوة ، فيتقدمون كل يوم ، وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ماسماه « داروين »[٢٩٥] : قانون التزاحم فى الحياة ، فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع واودعها لها لتعدها إلى الرقى فى درجات الكمال ، فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود إلى خفاء العدم ، وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على أنه أفضل بنى نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ، ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره .

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لامندوحة عنها ، وهى ان تستعد الأمة لهذا القتال ، وتأخذ له أهبتها ، تستجمع من القوة مايساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت ، خصوصا تلك القوة المعنوية ، وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سواها .

فإذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها ، وسلكت فى التربية مسالكهم ، واخذت فى الأعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ماتدرعوا به ، امكنها أن تعيش بجانبهم ، بل تيسر لها ان تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم ، لأن البلاد بلادها ، وارضها أبر بها منها بالغريب عنها ، وابناءها أقدر على المعيشة فيها ، وهم السواد الأعظم ، فكيف إذا ظفروا من أنفسهم بتلك الحال الشريفة لايفلحون ؟.

وهذه الطريق ـ طريق النجاة ـ كما قدمت مفتوحة أمامنا ، ولايوجد عائق يعوقنا عن السير فيها إلا مايكون من انفسنا .

فإن كان للمصريين همة وصدق عزيمة فى طلب سعادتهم ، والمحافظة على بقائهم

---

(٢٩٥) تشارلس روبرت داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ م) العالم الطبيعى الانجليزى الذى اشتهر بأبحاثه فى نظرية النشوء والارتقاء ، وأشهر آثاره الفكرية كتابه [أصل الأنواع] ، وله كذلك [أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس] ، وتنوع النباتات والحيوانات تحت الاستئناس) . ولقد لعبت نتائج أبحاثه فى نشوء الانواع وارتقائها دورا هاما ما فى الحياة الفكرية بالقرن التاسع عشر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسعى إلى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة ، فعليهم أن يسلكوا تلك الطريق ، ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة ، وينزعوا من أنفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم ، وليعتمدوا على أنفسهم فى اصلاح أنفسهم ، ولايضيعوا أوقاتهم فى أمانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم ، فإن حكومتهم لاتستطيع من العمل لهم إلا قليلا ، أما هم فإنهم يستطيعون أن يأتوا فى اصلاح شئونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم ان يقولوا كل يوم : إن الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من أن نفعل مايجب علينا لأنفسنا ؟ .

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن ان مصر رأت مايماثلها فى أى زمن من أزمانها ، وهما الأمران اللذان تحتاج إليهما الأمة أشد الاحتياج ، ولايتيسر بدونهما نجاح فى عمل من الأعمال العظيمة التى يقوم بها اصلاحها ، فما علينا إلا أن ننتهز فرصة ما وصلنا إليه ونحرث أرضنا ، ونسق غراسها ، وننتظر ماتأتى به من الثمرات ، فإذا نضجت اقتطفناها . كما ان الزارع يجب عليه قبل ان يلقى البذور فى الأرض ان يهتم بمعرفة طبيعتها وماتحتاج إليه من الأعمال لتحضيرها وتهيئتها ، حتى لايضيع ماله وتعبه ، كذلك يجب علينا ان نبحث فى أسباب تأخرنا ، فإذا عرفناها عمدنا إلى ازالتها ، وصنا أنفسنا من التخبط على غير هدى وأرحنا أنفسنا من التجارب العقيمة .

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمرا لاحظه كل من له إلمام بأحوال الشرق : وهو ان تأخر المسلمين عام فيه أين كانوا ، فالسبب يجب ان يكون عاما أيضا .

أما اختلاف الشعوب والأقاليم فليس له تأثير كبير فى انحطاط المسلمين ، إذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركى والمصرى والهندى والفارسى والبشناق والصينى من حيث العمران والمدنية ، ولكنا لا نرى اختلافا بينهم من هذه الجهة ، وإنما الاختلاف محصور فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد ، ذلك هو كل مافعله اختلاف الشعوب والأقاليم ، فالتركى ، مثلا ، نظيف صادق شجاع ، والمصرى على ضد ذلك ، إلا انك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط ، إذا لابد ان يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة .

ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا إلا الدين ذهب جمهور الأوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين ، إلى ان الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ، حتى الذين يشاركونهم فى الاقليم ويساكنونهم فى البلد الواحد . ولم يقصد أحد منهم ، خصوصا أفاضل المسلمين المشتغلين بأحوال الأمم الإسلامية ، أن يتهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدين الإسلامى الحقيق بأنه السبب فى انحطاط المسلمين ، فإن كل من عرف هذا الدين من الاجانب ، فضلا عن ابنائه المنتسبين إليه ، يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية فى الأمم التى انتشر بينها برهنت على أنه وسيله من افضل الوسائل ، وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الإنسان فى طريق الترقى والتقدم إلى غايات السعادة ، ولكنهم يرون أن مايزعمه المسلمون اليوم دينا وتسميه عامتهم بل وأغلب علمائهم بدين الإسلام قد اشتمل على أمور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيق الطاهر ، وإنما هى بدع ومحدثات أنصقت به ، فهذا الخليط الذى سماه الناس دينا واعتبروه اسلاما هو المانع من الترقى .

وليس فى امكان أحد أن ينكر أن الدين الإسلامى قد تحول اليوم عن أصوله الأولى ، وأن العلماء والفقهاء ـ إلا قليلا ممن أنار الله قلوبهم ـ قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزوا وحقت عليهم كلة الكتاب : (اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا) (٢٩٦)

ولكنى اعتقد ان هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سببا لما عليه المسلمون الآن ، وإنما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشى فى المسلمين بعامة ، رجلا ونساء .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه وأصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد ، وصرحت السنة ، كما أجمعت عليه الأئمة ، بأن لاقوام للدين إلا بسلطة تحفظه ، فلم يمض إلا قرن واحد من عهد ظهور الإسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم ، ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الأخذ بهذا الدين وإنما كانوا يفتحون البلاد دفاعا عن الحوز وتوسيعا لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذى يعمل له الأوروباويون فى بلاد الشرق الآن .

ثم لم يمض على ظهور الإسلام جيلان إلا وقد أضاء الكون بنور العلوم التى نشرها المسلمون فى كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به ، فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون إلا تعلموه والفوا فيه ، وزادوا عليه . حتى العرب ـ تلك الامة الامية التى ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية أبدا ـ اندفعت بقوة ذلك التيار ، وعامل تلك النهضة ، الى منافسة مواطنيهم فى خدمة العلم ، وكانت هذه الحركة عامة فى كل ما يجول فيه الفكر ، ويمتد اليه النظر ، وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام ، وآخر بالعلوم الطبيعية ، وثالث

---

(٢٩٦) الأعراف ٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالفلك والحساب ، ورابع بالتاريخ والجغرافيا ، وخامس بالفلسفة والاخلاق ، ولم يهملوا الصناعات والتجارة ، فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجرى فى البحار حول الارض . واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى أن رزئ المسلمون بوقائع التتار فى الشرق وانقراض الخلافة منه ، وزالت دولة العرب من الاندلس ، وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا ، فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى .

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق بأجمعه ، واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شىء من علوم الكلام وبعض شىء من قواعد اللغة ، وانصرفوا عن كل شىء سواها .

ولما ساد الجهل على عقولهم ، وتراكمت ظلماته فى اذهانهم ، لم يعد فى استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين ، وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بأن يصعدوا اليه بعقولهم ، فأنزلوه من مكانه الرفيع ، ووضعوه مع جهلهم فى مستوى واحد ، ثم اخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبى الاحمق ! والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ، ويعجب بمعارفه ، ويؤذى نفسه والناس معه .

انظر إلى الجاهل ، تجده دائما يختار من فكرين أقلهما صوابا ، ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما ، ذلك لأن الحق ، سواء كان فضيلة أو مصلحة ، يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر ، فلا يراه إلا بعيد النظر ، نافذ البصيرة فى مصائر الأمور وعواقبها ، ثم هو يحتاج فى الوصول إليه إلى عناء يفر منه الجاهل الكسول ، وفيه حرمان من لذة حالية فى سبيل منفعة مستقبلة .

ومن رأى علماءنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعنيهم ، وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى إعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وجه على الأقل ، وإن سألتهم عن شىء من الأشياء المتداولة فى أيديهم : كيف صنع ؟ أو عن حال الأمة التى هم منها ، أو أمة أخرى تجاورهم ، أو الأمة التى احتلت بلادهم : أين موقعها الجغرافى ؟ وما منزلتها من القوة والضعف ؟ بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه ، أو مكانه من بدنه ، هزوا أكتافهم ازدراء بالسائل والمسألة ، واحتقارا لها ، وإن تكلمت معهم فى نظام حكومتهم الداخلى وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية ، وجدتهم لا يدرون منها شيئا ، وسواء عاشوا فى العز أو فى الذل فهم على كل حال عائشون ، وبما ينحطون إليه راضون ، ويرون أن ليس للإنسان أن يعمل لمصلحة نفسه ، وأن يختار لها أمراً ، ويزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ، ونيل ما يتوهمونه شرفا ورفعة ، ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم ، فهم فى الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وإنما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعا للسذج بأنهم فى تقصيرهم فى أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء .

ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات ، وكيف تُعَذَّب الألفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما فى الدين والدنيا ، والبعد بينهم وبين الدين الحقيق عظيم ! .

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى بيان ما جاء به الإسلام كلاما نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لأنه أحسن ما كتب فى هذا الزمان لتنبيه أفكار المسلمين :

« طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل (نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[٢٩٧] (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقل ذرة شرا يره)[٢٩٨] . (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)[٢٩٩] وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره إلى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقا محترما تصطدم به .

انحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم . وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم : ثم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والرحلة كليلة والأزواد قليلة ! .

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون ، وإلى طريق البحث هادون .

---

(٢٩٧) البقرة : ٢٨٦ .
(٢٩٨) الزلزلة : ٧ .
(٢٩٩) النجم : ٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[٣٠٠]. فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غيره فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين. ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مُسْمِيا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان. وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان. بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)[٣٠١]. وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم: (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا)[٣٠٢]. (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون)[٣٠٣]، [٣٠٤].

ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفرا من علماء عصرنا فى مصر وفى غيرها من بلاد الإسلام، شرقا وغربا، يرون ما نرى، ويقولون ما نقول، ويعترفون بأن العلوم التى نقرأ الآن فى الأزهر وفى غيره لا تفيد إن لم تؤسس على الحقائق العلمية التى تهيئ العقول لقبولها والانتفاع بها.

وفى الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف

---

(٣٠٠) الزمر: ١٨.

(٣٠١) الأنعام: ١١.

(٣٠٢) لقمان: ٢١.

(٣٠٣) الزخرف: ٢٢.

(٣٠٤) رسالة التوحيد: صحيفة ١٠٠ و١٠١ و١٠٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العامة والمبادئ العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها ، وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس فى ارتباطها بخالقها وفى معاملتها مع بقية البشر ؟ وكلاهما يحتاج إلى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الأفكار ويرتقى به العقل ؟؟ أليس العلم فى الحقيقة واحدا يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد ، وتتغذى من جذر واحد ، وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هى معرفة حقيقة كل شىء فى الوجود ؟ .

وما علينا إلا أن نصغى لمقال هؤلاء العلماء الأفاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ، ولا يخفى عليهم شىء من حاجات الدنيا . وأن نعضدهم فى مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقابات ويتغلب على المصائب التى أقامها أهله فى طريقه .

ولا حاجة بنا إلى التطويل فى شرح أمر صار معلوما عند الكل ، وهو انحطاط الدين اليوم فى جميع مظاهره ، حتى فى العبادات ، وإنما أردنا أن نبين أن انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول ، وأن العلة الأولى التى هى مصدر غيرها من العلل التى حالت بيننا وبين الترقى هى أهمال التربية فى الرجال وفى النساء معا .

فإن استمر ذلك السبب لم يصلح للأمة حال ، بل يستمر كل أمر على حاله ، والدين أيضا ، وإن زال ذلك السبب صلح حال الأمة فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية وصلح معها الدين أيضا .

أما أن تربية الرجال تصلح شأن الأمة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفا عند كل أحد ، مسلما عند الجميع ، وأما وجوب تربية المرأة أيضا فلايزال محتاجا إلى البيان :

المرأة لا تكون خلقا كاملا إلا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . أما تربيتها الجسمية فلأنها لازمة لها فى استكمال صحتها وحفظ جمالها ، فيجب أن ترى كما يجب أن يرى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لأن الجسم الضعيف لا يسكنه إلا عقل ضعيف ، ولأن ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية إنما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم .

فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم ، وهذا هو السر فى تقدم الجنس الانكليزى السكسونى على غيره .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويرى القراء فى الكتاب الذى ترجمه صديقى أحمد فتحى بك زغلول[٣٠٥] من اللغة الفرنساوية إلى العربية[٣٠٦] كيف أن نشاطهم وجراءتهم وإقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التى تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هى نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال فى الأعمال مما له دخل كبير فى تربية أطفالهم ذكورا وإناثا . ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم فى تقليدهم ، لأنه أدركوا أن تربية العقل التى اعتنوا بها لاتثمر ثمرتها إلا إذا صحبتها تربية الجسم ، وأن موازنة العقل لاتتم إلا بموازنة وظائف الجسم . وإذا تذكر القارئ ما سبق بيانه من أن الولد يرث من أبويه ، خصوصا من أمه ، الحالة الجسمية والعقلية التى تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة .

وأما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها ، كما هى حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ، ويحفظ بها النوع الإنسانى ، لكنها فى ذلك إنما تؤدى وظيفة كل أنثى من سائر أنواع الحيوانات ، وهى لا تمتاز فى عملها هذا عن نحو هرة ولود ! .

وفى الحق أننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة ، وخصصناها بالنتاج ، ولم نطلب منها شيئا غير ذلك . وسببه أننا توهمنا أن المرأة لا تصلح لعمل آخر ، وأن الرجال غير محتاجين للنساء فى القيام بشئون الحياة الخاصة والعامة ، وغاب عنا أن الرجل إنما يكون فى كبره كما هيأته والدته فى صغره .

فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذى أريد أن يفهمه الرجال ، وهو ثمرة كل ما وضعته فى هذا الكتاب .

أنى أكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين إن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح ، فتلك هى الوظيفة السامية التى عهد التمدن بها إلى المرأة فى عصرنا هذا ، وهى تقوم بأعبائها الثقيلة فى كل البلاد المتمدنة ، حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالا .

---

(٣٠٥) (١٨٦٣ـ١٩١٤ م) من أبرز القانونيين المصريين فى عصره ، عمل بالقضاء ، وتولى منصب وكيل نظارة الحقانية (وزارة العدل) ، ومن مترجماته [أصول الشرائع] لبنتام ، و[الاسلام] لهنرى دى كاسترى ، و(سر الاجتماع) و(سر تطور الامم) لجوستاف لوبون . والكتاب الذى يشير إليه المؤلف هو من تأليف الكاتب الفرنسى ديمولين

(٣٠٦) سر تقدم الانجليز السكسونيين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبديهى أن العمل الأول ، وهو الولادة ، هو عمل بسيط مادى ، تشترك فيه المرأة مع الحيوانات ، فلا يحتاج إلا إلى بنية سليمة . أما العمل الثانى ، وهو التربية ، فهو عمل عقلى امتاز به النوع الإنسانى ، وهو محتاج فى تأديته إلى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة .

والأمر الذى يلزم أن تلتفت إليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام فى العائلات التى يتكون منها جسم الأمة ، لأن العائلة هى أساس الأمة . ولما كانت المرأة هى أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها فى المرتبة العقلية أول مؤثر فى تقدم الأمة وتأخرها .

المرأة ميزان العائلة . فإن كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها ، وعاشوا جميعا منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ، ولا يعرفون نظاما ولا ترتيبا فى معيشتهم ، فتفسد آدابهم وعوائدهم . أما إن كانت المرأة على جانب من العقل والأدب ، هذبت جميع العائلة ، واحترمها أفرادها ، واحترموا أنفسهم ، وعاش الجميع فى نظام تام تحت لواء محبتها ، متضامنين ، أقوياء باتحادهم . وهذه الصفات التى تشاهد فى العائلة هى الصفات التى تشاهد فى الأمة ، اذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته . ومن المحال أن يكون للإنسان من الصفات والأخلاق فى أمته ما ليس له نموذج فى منزله ، وأن يعامل مواطنيه بأخلاق غير التى يعامل بها أفراد عائلته . فإن كان حسن الأخلاق فى عائلته كان ذلك فى أمته ، وان كان سيئ الأخلاق فى عائلته ساءت أخلاقه فى أمته أيضا . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة فى تقدم الأمم وتأخرها .

وبالجملة فإن ارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل مختلفة متنوعة ، من أهمها ارتقاء المرأة ، وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا ، من أهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط فى مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف فى سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التى ينتظر بها مرور الأزمان ، ويجوز الابطاء فى إعداد الوسائل لها ، كما يتوهمه كثير من الناس الذين يغتبطون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات ، وإنما هى من الحاجيات ، بل من الضروريات التى يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات ، وهى الواجب الخطير الذى إن قمنا به سهل علينا كل إصلاح سواه ، وإن أهملناه أفسد علينا كل إصلاح سواه .

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البسيطة التى وقفها أولئك الأسلاف الغافلون على التناسل ، فبمجرد ما حل العقل محل القوة ، وحلت الحرية محل الاستبداد ، رأى العالم أن فى المرأة أسرارا لم تعرفها الجاهلية الأولى ، وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال ، وأن انحطاطها كان عارضيا لا طبيعيا ، فلما استيقظت من نومها ، واستنار عقلها ، واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ، ومرنت قواها على العمل ، صعدت من العقل إلى درجة وذهبت فى رقة الشعور إلى غاية لم تكن تخطر فى خيال واحد من أهل تلك العصور الخالية ، وهى إلى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة مالا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا والمرأة عاملة فيه مع الرجال كتفا لكتف ، ولا يوجد عمل خيرى إلا وهى فى أول العاملين فيه ، ولا تقع حادثة سياسية إلا وللمرأة نصيب فيها وليس بين الصنفين فرق إلا أن المرأة لم تنل الحقوق السياسية ، فإذا منحتها كما هو المنتظر فى بلاد أوروبا تمت المساواة بينهما . على أنها قد نالت منها الآن شيئا كبيرا حيث خول لها حق الانتخاب فى أمريكا ، وفى انكلترا فى المجالس البلدية ، وفى فرنسا فى المحاكم التجارية وفى بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة فى المجالس الشورية ، ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم أوروبا وأمريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعى فى سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر تترك فى تاريخ أعمالهن أثرا شريفا وتنتهى بفوز جديد .

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التى أظهر فيها هذا النصف الضعيف قوة عجيبة أن المرأة لابد أن تصل فى زمن قريب إلى مستوى تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال فى جميع الحقوق ، ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك إلا الله ، وهل يقف النساء عند هذا الحد أو يسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقى ؟ ! .

ومن البديهى أن هذه القوى التى تصرفها النساء فى التجارة والصناعة والفنون والعلوم ، وإن كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر أثرها للناظر فى أحوال الأمة ولكن لجميعها مجموعا واحدا يظهر أثره فى أحوالها تمام الظهور ، وهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى العناية والانتفاع به .

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال النساء الخيرية ، لأن الميل إلى الخير من غرائز المرأة الفطرية ، ويقودها إليه رقة الاحساس وحنو القلب ، ولها من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله أعظم الرجال جلدا ، ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي . وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب . غير أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدا يهديها إلى سبل الخير فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة في أصغر الأمور وأحقرها .

هذا هو عمل المرأة في الأمم المتمدنة . وقد وجد في مبدأ الإسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر في مصالح المسلمين العامة . فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية ، على اختلاف مواضيعها ، قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة ، وأن عددا غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر ، وأن عائشة تداخلت في مسألة الخلافة العظمى ، وكانت رئيسة للحزب المعارض لأحد الخلفاء ، وأني أورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام إلى الطائفة التي كانت قد انحازت إليها ، وهي الخطبة التي ألقتها عند دخولها البصرة :

«إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ورسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين (عثمان) بلا ترة ولا عذر . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا . وقرأت : (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)[٣٠٧] . ننهض في الإصلاح ممن أمر الله ـ عز وجل ـ وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصغير والكبير والذكر والأنثى ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره»[٣٠٨] .

ويروى عن أم عطية أنها قالت : «وغزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبع

---

(٣٠٧) النساء : ١١٤ .

(٣٠٨) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غزوات ، وكنت أحلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

والذى يقرأ هذه الأسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتى وهبن حياتهن لخدمة الإنسانية .

والناظر فى الأحوال التى فضّلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة فى بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وأن الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة ، وحصر الوظائف العمومية فى الرجال ، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه إلى الآن التمدن فى أوروبا ، ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ـ ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل ـ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

والقارئ الذى تتبع سلسلة القواعد الكلية التى سردتها بغاية الايجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص فى عبارة واحدة : **هى أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة** . فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذى كان يظنه جسما ، يرى المرأة التى يهيئها المستقبل تتلألأ فى أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطرى ولابسة حلة كمالها النسائى : الجسم والعقل .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العائلة

لايتم إصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها ، بل يحتاج إلى تكميل نظام العائلة. نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ، ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والأحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة وانحطاطها ولهذا رأينا من الضرورى استلفات الذهن إلى أهم المسائل التى تمس بحياة العائلة ، وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق . وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب .

* * *

(١)

[الـــزاوج]

رأيت فى كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه : «عقد يملك به الرجل بضع المرأة» . وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير إلى أن بين الزوج والزوجة شيئا آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية ، وكلها خالية عن الاشارة إلى الواجبات الأدبية التى هى أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر .

وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاما ينطبق على الزواج ، ويصح أن يكون تعريفا له ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التى وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه .

قال الله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[٣٠٩] . والذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله يرى بنفسه إلى أى درجة وصل انحطاط المرأة

---

(٣٠٩) الروم : ٢١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فى رأى فقهائنا ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط إليها الزواج حيث صار عقدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع .

فهذا النظام الجميل ، الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين ، آل أمره بفضل علمائنا الواسع ، إلى أن يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل ، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة ، وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعى المودة ألا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج إلا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر ، ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيق الشرعى استخففنا به وتهاونا بواجباته ، وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه .

بينا فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر به أحد الأنصار أن ينظر إلى مخطوبته وهو قوله : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» . فما بالنا أهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة ، مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية ؟ ذلك لأن الجاهل من عادته أن يميل إلى ما يضره وينفر مما ينفعه .

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمى العقل قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معا وأن يختلطا كمال الاختلاط؟ أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشترى خروفا أو جحشا قبل أن يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الإنسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر ! .

لعلك تقول إن المرأة ترى خاطبها من الشباك مرارا ، وأن الرجل يعرف بواسطة أمه أو اخته أوصاف مخطوبته ، مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك فيكون عنده علم بما هى عليه من جمال وشمائل . نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل إلى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال ، وإنما الذى يهم الإنسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقا حيا يفتكر ويتكلم ويفعل ، خلقا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كثيرا ما يرى الواحد شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ، وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه فى الحال نفورا تاما ولا يعلم لذلك سببا ، وربما يستقبح الناظر شخصا على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل منه ما وجد عنه أولا بضده ، وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لأول كلمة تصدر منها ، وخصوصا أن هذا الاحساس المادى ، سواء كان ميلا أو نفورا ، لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ، ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة ، فإن الإنسان الواحد يكون منظره سببا للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر ! .

فهذه الجاذبية الحسية لابد منها عند الزوجين ، وهى إن لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا أرى فى أى شىء آخر تكون لازمة ! .

على ان الانجذاب المادى ليس كافيا فى الزواج ، بل يلزم أن يوجد أيضا توافق بين نفوس الزوجين ، أى أنه يوجد ـ لا أقول اتحاداً لأنه مستحيل ـ وإنما ائتلاف بين ملكاتهما وأخلاقهما وعقولهما ، ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده إلا إذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا .

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون امرا محترما فى نفوس الزوجين ، وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ، ويكون أيضا موجبا للعفة والتصون . وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين مهما طال أجل الزواج ، ومهما كانت صفات الرجل والمرأة ، ولهذا قال الأعمش [٣١٠] : «كل تزويج يقع على غير نظر فأمره هم وغم» .

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد ، تنحل لأول عرض يطرأ عليها ، وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه ، والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه .

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته ، فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها ، أما حرمانها من النظر فى كل

---

(٣١٠) سليمان بن مهران الأسدى (٦١ ـ ١٤٨ هـ ٦٨١ ـ ٧٦٥ م) من مشهورى علماء التابعين ، نشأ وتوفى بالكوفة وكانت شهرته فى علوم القرآن والحديث والفرائض .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما يختص بزوجها ، وقصر الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب .

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها ، فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه ، ولا تسأل هل تحب الاقتران به ، ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها ، وهى لا تجد من نفسها جراءة على أن تبدى ما فى ضميرها . ويرى الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت فى أهم الأشياء لديها ، فيعطى القريب أو البعيد رأيه فى زواجها ، ما عداها . ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب وهم مخطئون فيما يظنون .

منحت شريعتنا السمحاء إلى النساء حقوقا لا تنقص عن حقوق الرجل فى الزواج . فلها الحق مثله فى أن تتأكد من إمكان تحقيق آمالها. وماعلينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعمال الصحابة لتتم لنا السعادة فى الزواج .

جاء فى الكتاب العزيز : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف)[٣١١] وكان ابن عباس يقول ، اتباعا لهذه الآية الكريمة : «إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى ! » وقال تعالى : (وعاشروهن بالمعروف)[٣١٢] ، وقال فى تعظيم حقهن : (وأخذن منكم ميثاقا غليظا)[٣١٣] ، وجاء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله» . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب النساء كما ورد فى الحديث : «حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة» . وكان يحترم النساء احتراما برهن للعالم على حسن خلقه ، حتى أنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها اذا أرادت أن تركب ، وكان يتنازل إلى ملاعبتهن ومازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة ـ رضى الله عنها ـ فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال : «هذه بتلك» ، وكان يرأف بالنساء ويوصى عليهن دائما ، فما روى عنه قوله : «خياركم خياركم لنسائكم» ، وقوله : «استوصوا بالنساء خيرا» . والأحاديث فى

---

(٣١١) البقرة : ٢٢٢ .

(٣١٢) النساء : ١٩ .

(٣١٣) النساء : ٢١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الموضوع كثيرة ، كلها تدل على أن الدين الإسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالإحسان والمعروف .

ولكن مادامت المرأة على ما هى عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون ـ كما هو الآن ـ إلا شكلا من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة .

أما اذا تعلمت المرأة حقوقها ، وشعرت بقيمة نفسها ، عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معا ، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما ، بجسميهما وقلبيهما وعقليهما ، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها ، فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل إليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها فيكونون معها على اتفاق فى الرأى فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها ، عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيق .

انظر إلى زوجين متحابين تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة ، ماذا يهمها أن يكون الصندوق خاليا من المال ، أو أن يكون على المائدةعدس وبصل ؟ أما يكفيها فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم ؟ هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم والطمأنينة فى النفس ويحيى فى القلب شعورا بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه فى مكان الرضى حتى قال عمر بن الخطاب : «ما أعطى العبد بعد الإيمان خيرا من امرأة صالحة» .

أين هذا من حال عائلاتنا اليوم التى نرى فيها الزوجين وأحدهما أبعد الناس عن الآخر ولو لم يكن إلا هذا البعد لخف احتماله ، ولكن لما كان فى طبيعة الإنسان أن يحرى وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها ، ومن هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء ، يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر ، وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات فى كل آن بسبب وبغير سبب ، فى الصباح وفى المساء ، حتى وفى الفراش .

تنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها إلى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون ، فيستولى الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر إليه كأنه غير مسكون بأهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده ، وتغفل شئون الزوج والأولاد فى مأكلهم وملابسهم وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر فى سوء ما وصلت إليه ، أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها الهموم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس الرجل بأحسن منها حالا : فإنه يهجر منزله ويستريح إلى العيش فى القهاوى أو عند جيرانه ، فإذا رجع إلى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت .

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر ، كما هو حاصل الآن ، إنما هو طريقة يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على التعاقب ، ولا تجد فيه المرأة مزية ترضى نفسها .

وكل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه فى السراء والضراء يصعب عليه ، بل قد يتعذر ، أن يبلغ ما يريد من ذلك ، ولهذا السبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة .. لأن الشعور بوجوب تربية البنين تقدم ـ وسيتقدم كثيراً فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه ، وإلا فما علينا إلا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت ، وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس .

ولست مبالغا ان قلت : ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة ، فإنهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم ، لا خادمة تستعمل فى كل شىء ، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادئ الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة .

وكل من تجرد من التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لابد أن ينشرح صدره عندما يرى نمو هذا الميل فى نفوسهم ، ويرى من نفسه وجوب الاصغاء إلى مقالهم والنظر فى مطالبهم ، فلا يستهجنها لأول وهلة ، ولا يرميهم بالتفرنج فى آرائهم قبل البحث فيها ، بل يزنها بميزان العقل والشرع ، ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذى نطلبه ليس إلا رجوعا فى الحقيقة إلى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين ، وانه إصلاح يقضى به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢)
[تعـــدد الزوجـات]

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التى كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ومنتشرة فى جميع الانحاء ، يوم كانت المرأة نوعا خاصا معتبرة فى مرتبة بين الإنسان والحيوان . وهو من ضمن العوائد التى دل الاختبار التاريخى على أنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية فتكون فى الأمة غالبا عندما تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول بالمرة عندما تكون حالها مرتقية . اللهم إلا اذا كان التعدد لأسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم ، حتى فى الأمة التى ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده ، وعرف أن من حقوقها أن تكون فى المرتبة التى تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال إلى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات ، ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن أحدا ينازعنا فيه ، من أن هذه العادة خفت فى بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة .

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود فى سقوط هذه العادة ، حيث قطع ورود الجوارى التى كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم ، ولكن يظهر لى أن ترقى عقول الرجال وتهذيب نفوسهم لها أثر مهم أيضا فى تلاشيها ، ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها .

وبديهى أن فى تعدد الزوجات احتقارا شديدا للمرأة . لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى ، كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته . وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعى للمرأة كما أنه طبيعى للرجل . ولو سلم أنه ليس بطبيعى ، كما ذهب إلى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذى يعيش بين العشرات من الدجاج ، فأقل ما فيه أنه ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية ، كالعادة والتوارث ، مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية إلى ما أعد له من الكمال الإنسانى . فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل فى الأنفس والرسوخ فيها لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية .

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى ، اذ لا يخلو حالها من أحد أمرين ، إما أن تكون مخلصة فى محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة فى قلبها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتذوق عذابها . وأما ألا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الأسباب ، فهى مع ذلك ترى لنفسها مقاما فى أهله ، فإذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه إحساسها بأن ذلك المقام الذى كان باقيا لها قد انهدم ، ولم يعد لها أمل فى بقاء شىء من كرامتها عنده فالأمل لاصق بها على كل حال .

وإن قيل إن التجارب دلت على إمكان الجمع بين امرأتين أو أكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين :

الأول : إن ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح إلا فى بعض أفراد نادرة لا حكم لها فى تقدير حال أمة ، وإن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى ، وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين أزواجهن ومصدر شقاء الأهل والأقارب ، فمن يدعى أن نساءنا يرضين بمشاركتهن فى أزواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء فى البيوت .

والثانى : إن ما يكون من ذلك الرضاء فى القليل النادر ناشئا عن أن المرأة إنما تعتبر نفسها متاعا للرجل ، فله أن يختص بها وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء ، وليس لها على هواه حق تطالبه به ، كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعا للحكام فى عهد ليس بعيدا عنا .

ويظهر أن رجلا مهذبا عارفا بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين ، فضلا عن أكثر .

قدمنا أن فى فطرة المرأة ميلا إلى التسلط على قلب الرجل ، فإذا رأت بجانبه امرأة أخرى فى فطرتها ذلك الميل ، ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهى ، تولاها الاضطراب والقلق ، وهجرتها الراحة ، وكانت حياتها عذابا أليما ، وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب . فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليم ؟ .

ويزيد النساء قلقا واضطرابا ما صرح به الفقهاء من أنه لا يجب على الرجل أن يعدل فى محبته بين نسائه ، وإنما طلبوا العدل فى النفقة وماشاكلها .

ولا ريب فى أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد فى نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائما بأنه هو السبب فى هذا الشقاء .

ثم ان الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواطف الشقاق والخصام فلا يجدون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم ، بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينمى فى نفوسهم البغضاء ، ولا يستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصم والدهم فيؤثر ذلك فى نفوسهم ، بل يسرى فى أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة ، مثلهم كمثل الممالك الأوروباوية تظهر بحال السلم وهى تأخذ أهبتها للحرب إذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فمزق بعضهم بعضا كما نشاهده فى أغلب العائلات .

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد فى حضن والديهم ، تجمعهم محبة صادقة ، لا يتنافسون إلا فى زيادة الحب ، ولا يتسابقون إلا إلى الخير يصل من بعضهم لبعض ، يربطهم ميثاق غليظ كأعضاء جسم واحد ، ان فرح أحدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه ؟ هم سعداء الدنيا فى كل حال ، أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل ، وهى المودة فى القربى .

فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع ، فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة ، وأقرب إلى الوصول إلى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة : اللهم إلا فى حالة الضرورة المطلقة كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى فى هذه الحالة وأمثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها ، والمروءة تقضى أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هى ما عساه كان يصاب به .

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية ، اما مع المحافظة على الأولى إذا رضيت أو تسريحها ان شاءت ، وهى ما اذا كانت عاقرا لا تلد ، لأن كثيرا من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل فى عائلتهم .

أما فى غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية وهو علاقة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ .

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تحتوى إباحة وحظرا فى آن واحد ، قال تعالى :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا)[٣١٤] .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما)[٣١٥] .

ومن هاتين الآيتين يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع . فمن ذا الذى يمكنه ألا يخاف عدم العدل ، مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمحال ؟ أظن أن كل بشر اذا أراد الشروع فى عمل غير مستطاع يخاف ، بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده .

ولو ان ناظرا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بما يقتضى الإباحة فى الجملة .

وكأن مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة ، وبأن الله تعالى وكل الناس فى ذلك إلى ما يجدونه من أنفسهم ، فمن بلغت ثقته من نفسه حدا لا يخاف معه أن يجور اذا أراد أن يتزوج أكثر من واحدة أبيح له ذلك بينه وبين الله ، ومن لم يصل إلى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة ، ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن إدراكها زيادة فى التحذير .

وغاية ما يستفاد من آية التحليل إنما هو حل تعدد الزوجات إذا أمن الجور ، وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى ، ومن المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد فى أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاما جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، ان يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .

وإنه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من أنفسهم ، ولا أظن أن احدا

---

(٣١٤) النساء : ٣ .

(٣١٥) النساء : ١٢٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أهل المستقبل يأسف على تركها ، فإن التمتع بالنساء ، وان قل فى هذه الحالة من الجهة الشهوانية ، فإنه يزيد من الناحية المعنوية التى يلزم ان تكون وجهة كل راغب فى الزواج فإن رجلا يسوقه إلى الزواج سائق العقل ويوجه رغبته إليه حادى الفكر يعلم أنه إنما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمده بالمعونة فى شئونه ، يؤنسه فى وحدته ، ويشفعه فى عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من أهله ، فهو يتخير لذلك خير العقائل وأكرم السلائل ويصطفيها على ما يجب من العقل والأدب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن ، ويكون له منها منظر بهى وملمس شهى ، وصورة تعجب ، ومعنى يطرب ، وفهم يسبق الاشارة ، وذكاء يستغنى عن العبارة ، ولذة بلطف الشمائل ، ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة ، تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة ، تحسن القيام على أولاده بالتربية الصالحة ، وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها ، فتأخذ أرواحهم من روحها ماأخذته أبدانهم من بدنها ، فينشئون على المحبة ويشبون على الألفة . فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء . وعيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فأين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود إلى ما انحط من دركات الشهوة ؟ .

* * *

(٣)
[الطـــلاق]

قال فولتير[٣١٦] الكاتب الفرنساوى الشهير ، على طريقته من الفكاهة المعروفة فى كثير من مؤلفاته : «ان الطلاق قد وجد فى العالم مع الزواج فى زمن واحد تقريبا ، غير أنى أظن الزواج أقدم ببضعة أسابيع ، بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ، ثم ضربها بعد ثلاثة ، ثم فارقها بعد ستة أسابيع ! » . وقد أراد بذلك أن يقول إن الطلاق قديم فى العالم وأنه يكاد أن يكون من الأعراض الملازمة للزواج . وهو حق لا يرتاب فيه ، فقد دل تاريخ الأمم على أن الطلاق كان مشروعا عند اليهود والفرس والرومان ، وانه لم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها .

---

(٣١٦) فرانسوا فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) من أبرز الكتاب الذين مهدت كتاباتهم وانتقاداتهم للثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يزال أثر ذلك المنع باقيا إلى الآن فى شرائع الأمم الغربية التى وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا يُحَلّ إلا بموت أحد الزوجين . وهذا افراط فى احترام هذا العقد ، ومغالاة فيه إلى حد يصعب أن يتفق مع راحة الإنسان .

نعم إن من أماني الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل إلا بالموت ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر .

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على مسمر الازمان بأن أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم ، وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس إلى التخلص من ربقة تلك الأحكام . فنزع الغربيون إلى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات ، ولقد اشتد هذا الشعور فى الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبة وموافاة رغائب الكافة ، وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير أحكام فى أحوال سمتها «أحوال بطلان الزواج» ، ورتبت على ذلك البطلان أحكاما لا تختلف فى آثارها عن أحكام الطلاق ، فقبلت فسخ الزواج اذا أثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار ، وأنه اخطأ فى معرفة الآخر ، أو اذا ادعى أحد الزوجين أن الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . وأخذت تتوسع فى تأويل الحالة الثانية إلى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شىء . وفى الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجان على أن يدعى أحدهما أن الآخر لم يقم أو لم يعد فى امكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته إلا من قبل الزوجين ، فقولها هو الدليل الذى يصح التعويل عليه .

إلا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم فى هذا الباب ، فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى إلى المطالبة بتقرير أحكام كافلة للراحة ، خصوصا وقد رأت أن هذه الأسباب التى قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة ، وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والأذواق السليمة .

ومن أجل ذلك اضطرت الحكومات إلى تقرير الطلاق ، والتصريح بجوازه على شروط بينتها ، وأوسعت له محلا من قوانينها . وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة كما بطلت سيطرتها فى كل مالم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الأمم . وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لا يراعى أهله فى أحكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الإنسان ويقفون به فى مكان واحد عندما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر فى أسراره وطرق تنفيذه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخل الطلاق فى جميع الشرائع الغربية تقريبا رغما من معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج ، لعدم اعتبارها ذلك الطلاق ، ولكنه لم يصل إلى الدرجة التى يستحقها من القبول والاعتبار ، ولم يستوف إلا عند الأمة الامريكانية ، التى فاقت غيرها ببذلها المجهود فى الاقدام على طلب الترقى ، ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده بأحوال مخصوصة كما قيده غيرها .

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها إلى التوسع فى الطلاق ، ولابد أن تنتهى يوما إلى الاعتراف بأن ما أباحته إلى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين أو الحكم عليه بعقوبة فى أحوال مخصوصة غير واف بالحاجة وعند ذلك تقرر إباحة الطلاق متى وجدت أسبابه فى نفوس الزوجين وتتركه إلى مشيئتيهما .

نعم إن اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، ولكنه من المضرات التى لا يستغنى عنها ، ويكفى لتسويغه أن منافعه تزيد عن مضاره . فإن كل نظام لا يخلو من ضرر ، والكمال التام فى هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع .

ونحن لا نريد البحث فى هذا الموضوع الواسع لأننا اجتنبنا فى هذا المختصر كل بحث نظرى . وإنما نقول إن من أجال النظر فى نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه يشعر بالنعم التى أفاضها الله على المسلمين ، ويقتنع بأن كتاب الله قد أتى من الحكمة على منتهاها ، وأنه وفى كل شىء حقه .

وأول ما يجب الالتفات إليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلا عاما يجب أن ترد إليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهو **أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة** ، والشواهد على ذلك كثير فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما جاء فى كتب الأئمة نورد منها ما يأتى :

قال تعالى : (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيراً) [٣١٧] .

وقال جل شأنه : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) [٣١٨] .

---

(٣١٧) النساء : ١٩ .

(٣١٨) النساء : ٣٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى : «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »[٣١٩] .

وجاء فى الحديث : «أبغض الحلال عند الله الطلاق» . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات» . وقال على كرم الله وجهه : «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش» .

وجاء فى حاشية ابن عابدين : إن الأصل فى الطلاق الحظر ، بمعنى أنه محظور إلا لعارض يبيحه ، وهو معنى قولهم : الأصل فيه الحظر والإباحة للحاجة إلى الخلاص . فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الإيذاء بالمرأة وبأهلها وأولادها . ولهذا قال تعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)[٣٢٠] . «أى لاتطلبوا الفراق» انتهى[٣٢١]

والمطلع على كتب الفقه ، وان كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على العموم أن هذا الأصل الجليل الذى من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل إليه الإمكان . لكنه لابد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساوية ، ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات .

أولها ـ مسألة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية ، فقد خالف بعض الفقهاء خصوصا من المذهب الحنفى ، فى هذه المسألة التى هى من الأصول العامة التى بنى عليها معظم أحكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة ، كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل المخطئ ، وأخرج الطلاق من مشمول هذا الأصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطئ والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذى لا يميز السماء من الأرض .

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يعولوا على النية التى هى أساس الدين الإسلامى كما يستفاد من حديث : «إنما الأعمال بالنيات» ، كما أنهم لم يلتفتوا إلى قصد الشارع فى أن الطلاق

---

(٣١٩) النساء : ١٢٨ .

(٣٢٠) النساء : ٣٤ .

(٣٢١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محظور فى الأصل وأنه أبغض الحلال عند الله ، وقد عللوا نفاذ الطلاق فى الأحوال التى أشرنا إليها بأسباب أذكرها للقارئ وأترك له مسئولية الحكم عليها .

قرأت فى كتاب الزيلعى ما معناه : «إن طلاق الهازل والمخطئ يقع لأن لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج ، وأن طلاق المكره يقع لأنه عرف الشرين واختار أهونهما ، وأما السبب فى وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجرا له»[٣٢٢].

ولكنا نحمد الله على أن فى المذاهب الإسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ، ويمكن لمريد الإصلاح أن يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع فى تلك الأحوال .

ثانيا ـ أن الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعى دائما قال تعالى : (يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم)[٣٢٣]. وقال تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا)[٣٢٤].

ولكن قسم الفقهاء الطلاق إلى صريح وبالكناية ، وقالوا : بالطلاق تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة بائنة ، أما بالكناية فيكون الطلاق بائنا لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة إلا بعقد جديد ، إلا فى بعض ألفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثا ان نوى الثلاث .

إلا أنه يوجد فى مذهب آخر ، كمذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أن الكنايات جميعها رجعية ، ووجه الحق فى هذا المذهب ظاهر ، فإنما الطلاق طلاق على كل حال ، وهو فصل عصمة المرأة من الرجل ، فاختلاف الألفاظ بالنسبة إلى هذا المعنى إنما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم ، ولو سلم اختلاف الأحكام باختلاف الألفاظ فى مثل هذا الباب لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم الصريح .

---

(٣٢٢) صحيفة ١٩٥ جزء ٢ .

(٣٢٣) الطلاق : ١ وما بعدها .

(٣٢٤) البقرة : ٢٢٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثها ـ اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثا متفرقة فى حيض واحد أو فى مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثا . على أن هذا النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بأنه بدعى ـ أى مخالف للكتاب والسنة ـ لا يمكن تصوره على الكيفية التى قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم . قال تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[٣٢٥] . وجاء فى تفسير هذه الآية فى [كتاب حسن الاسوة] : «وإنما قال سبحانه (مرتان) ، ولم يقل «طلقتان» ، إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد أخرى لا طلقتين دفعة واحدة . كذا قال جماعة من المفسرين» . وجاء فيه أيضا : «قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة ، هل تقع ثلاثا أو واحدة فقط ، فذهب إلى الأول الجمهور وذهب إلى الثانى من عداهم وهو الحق . وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤلفاته تقريرا بالغا وأفرده برسالة مستقلة . وكذا الحافظ ابن القيم فى [اغاثة اللهفان] و[أعلام الموقعين]»[٣٢٦] .

جاء فى ابن عابدين : «وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا فى حالة الحيض ، لأنه بدعة محرمة . وعن ابن عباس : يقع به واحدة ، وبه قال ابن إسحاق وطاوس وعكرمة لما فى مسلم أن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر : ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم . وذهب جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلى أنه يقع ثلاثا . قال فى [الفتح][٣٢٧] بعد سوق الأحاديث الدالة عليه : وهذا يعارض ما تقدم ، وأما امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بأنها كانت واحدة فلا يمكن إلا وقد اطلعوا فى الزمان المتأخر على وجود ناسخ أو لعلمهم بانتهاء الحكم بذلك لعلمهم بإناطته بمعان علموا انتفاءها فى الزمن المتأخر ، وقول بعض الحنابلة توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مائة ألف عين رأته فهل صح لكم عنهم أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل . أما أولا فإجماعهم ظاهر لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى الثلاث ولا يستلزم فى نقل الحكم الاجماعى عن

---

(٣٢٥) البقرة : ٢٢٩ .

(٣٢٦) صحيفة ١٦ .

(٣٢٧) هو كتاب [فتح الله المعين على شرح الكنز للعلامة ملا مسكين] للشيخ محمد ابو السعود بن على بن على الحسينى (من علماء القرن الثانى عشر الهجرى) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مائة ألف تسمية كل فى مجلد كبير لحكم واحد على أنه اجماع سكوتى »[٣٢٨].

وقد روى فى هذه المسألة من الأحاديث مالم يدع شكا فى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد لا يقع إلا واحدا. جاء فى الزيلعى : «وقال ابن عباس : أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا ، فقام غضبان ثم قال : «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ ! » . ذكره القرطبى ورواه النسائى[٣٢٩] وجاء فيه أيضا : «وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة إلى أن الطلاق الثلاث جملة لا يقع إلا واحدة ، لما روى عن ابن عباس أنه قال : «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر ـ رضى الله عنهما ـ واحدة ، فأمضاه عليهم عمر ـ رضى الله عنه ـ . رواه مسلم والبشارى . وروى ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثا فى مجلس واحد ، فحزن عليها حزنا شديدا فسأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثا فى مجلس واحد . قال . إنما تلك طلقة فارتجعها»[٣٣٠].

يرى القارئ من هذه العبارات التى بسطناها ليحصل لنفسه منها رأيا أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر ـ رضى الله عنه ـ ، بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبى ، ويمكن للأمة اذا أرادت الإصلاح أن تأخذ بقولهم ، لأن عمر ـ رضى الله عنه ـ قد بين لنا سبب قضائه بقوله : «ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم» ، فكأنه اجتهد فى جعله عقوبة لردعهم عنه ، وكلنا نعلم أنه لم ينشأ من اجتهاد عمر إلا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه فى محاوراتهم وأيمانهم .

بل لم لا يأخذ مريد الإصلاح بمذهب الإمامية الذى نقله ابن عابدين ، وهو مذهب الأئمة من آل البيت فى قولهم ، كما مر : «إن الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض ، لأنه بدعة محرمة» .

وإن سمح لى القارئ أن أبدى هنا كلاما أظنه صوابا أقول : لا يمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة ، لمجرد التلفظ بها ، مهما كانت صريحة . نعم ان الأمثال الشرعية لا تستغنى عن الألفاظ ، اذ لو حلّلنا أى عقد لوجدناه مركبا من ظهور إرادة أو مطابقةارادتين حصل

(٣٢٨) صحيفة ٥٧٦ جزء ثانى .

(٣٢٩) صحيفة ١٩٠ جزء ثانى .

(٣٣٠) صحيفة ١٩١ جزء ثانى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستدلال عليها أو عليهما من ألفاظ صدرت شفاهيا أو بالكتابة . ، ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ ، وإنما مرادنا أن اللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلا على النية .

فينتج من ذلك أن يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة فى أنه إنما يريد الانفصال من زوجته ، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) .

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ والتفنن فى فهم معانيها فى ذاتها ، بقطع النظر عن الأشخاص ، وعندهم متى ذكر اللفظ تم الأثر الشرعى .. ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم : طلقتك ، وأنت طالق ، وأنت مطلقة ، وعلىّ الطلاق ، وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك ، وما أشبه ذلك ! وصارت المسألة مسألة بحث فى اللفظ والتركيب ، ربما كان مفيدا للغة والنحو ، ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقه بشىء .

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ ، والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق وإنشاء حقوق جديدة ، وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج ، فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له إلمام ولو سطحيا بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم .

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ وبحثوا فى مآخذ الأحكام التى يقررونها وعرفوا تاريخها وأسبابها وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها ، وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا إلا إذا كان مصحوبا بنية الانفصال .

ويمكن لناظر أن يجد فى كتب الشريعة الإسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال ، فقد نقل عن [شرح التلقين] : «أن الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حالة الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه» . ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على بن أبى طالب : «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة . قاله الرسول عليه السلام» .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم ، ان ناقل هذا القول اجتهد فى رده ، وبالغ فى ابطاله ، ولكن مريد الإصلاح له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما .

نحن فى زمان ألف رجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق ، فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا ، فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له : ان لم تفعل كذا فزوجتى طالق ، فيخالفه ، فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته ، وهى لا تعلم بشىء ما ولا تبغض زوجها ولا تود فراقه ، بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها ، وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فإذا افترق منها بتلك الكلمة التى صدرت منه ، لا بقصد الانفصال من زوجته وإنما بقصد إلزام الشخص الآخر بالعمل الذى كان يريده ، كان الطلاق على غير نية منه . رب رجل يناقش زوجته فى بعض شئون البيت فيرد على لسانه فى وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد ، وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال أيضا وقع الطلاق ويعقبه أيضا ما سبق ذكره من البلاء الذى ينزل على الزوجين .

رب فلاح يرتكب جريمة السرقة ، مثلا ، فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه فينكر ، فيستحلفه بالطلاق ، فيحلف أنه ما سرق ، والحال أنه سرق ، فيقال كذلك وقع الطلاق ، وهو لم يقصد بيمينه إلا تبرئة نفسه ، ولم يخطر بباله عند الحلف أنه مباغض لزوجته كاره لعشرتها .

فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج ، كما ذكر الطبرسى [٣٣١] ، وكما تشير إليه الآية الواردة فى سورة الطلاق حيث جاء فى آخرها :(واستشهدوا ذوى عدل منكم)[٣٣٢] .

أليس هذا أمرا صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهودة لدى العموم ليسهل اثباته؟

---

(٣٣١) الفضل بن الحسن بن الفضل (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م) من علماء الشيعة الامامية ، برع فى اللغة والتفسير ، ومن آثاره فى التفسير (مجمع البيان فى تفسير القرآن والفرقان) و (جوامع الجامع) . وهو ينسب إلى طبرستان ، فاشتهر بالطبرسى .

(٣٣٢) الطلاق : ٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية فى وقت غضب ؟ نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا أن ـ الله سبحانه وتعالى ـ قد اطلع على ما تصل إليه الأمة فى زمان كزماننا هذا فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم .

بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتى :

(المادة الأولى)

كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته .

(المادة الثانية)

يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ماورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

(المادة الثالثة)

اذا أصر الزوج بعد مضى الأسبوع على نية الطلاق فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

(المادة الرابعة)

اذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

(المادة الخامسة)

لا يصح الطلاق إلا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل اثباته إلا بوثيقة رسمية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والذى يتأمل فى الآيات التى سبق ذكرها فى الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاما مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها فى شىء . وليس لمعترض أن يحتج بأن نظاما مثل هذا يسلب الزوج حقه فى الطلاق ، لأن حق الزوج فى الطلاق باق على ما هو عليه الآن ، فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لاتزال متروكة لتقديره ، وغاية ما فى الأمر أننا اشترطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضى ، وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج وإنما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ، حيث نرى كثيرا من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون إلى استعمال الحيل الدنيئة ، كالمحلل مثلا ، لمداواة طيشهم .

ألا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق ، فضلا عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلا إلى الآن ، حيث لم نسمع بإجرائه يوما ، خصوصا فى أمة كأمتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش إلى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر ، وامرأته جالسة فى بيتها لا تعلم شيئا مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثمانى عشرة سنة الأخيرة [٣٣٣] على أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . وإليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق	سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨	١٣٦٠١	٦٩٠٢	١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢	١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨	١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠	١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠	١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠	١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨	١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠	١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠	١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

(٣٣٣) أى من سنة ١٨٨٠ حتى ١٨٩٧ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأذكر هنا احصائيات أخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨ :

١٨٩٨	١٢٠ ٠٠٠	٣٣٠٠٠ (٣٣٤)

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث وهذه النتيجة وان كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشتمل على **سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر** إلا أن كليهما من أقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها .

ومن الغنى عن البيان أن المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع مالها من الحقوق فإنها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والاهانة التى تعامل بها وهى جاهلة ، وعند ذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم إلا عند الضرورة التى شرع الطلاق لأجلها ، فتربية النساء مما يساعد على إصلاح أخلاقنا وتأديب ألسنتنا ، فإن الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ، ولكنه يشعر رغما عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلوا فى الأخلاق ، فيعف لسانه عن ذكر مالا يليق بها ، ويؤدى لها حقوقها .

ولكن لا يجمل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن ، بل يجب على كل من يهتم بشأن أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق إلى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية . وقد بينا أن مجموع المذاهب الإسلامية قد حوى من الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة ، وتكون مراعاتها من الوسائل إلى تقدمنا فى طريق الصلاح ، وأقل ما يكون من أثرها أن لا تجد المفاسد سبيلا من الشرع إلى ظهورها ، فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ، ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن أن تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة إلا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شىء مما نراه لازما لتقدم المرأة ، والوصول إلى منح المرأة حق الطلاق يكون بإحدى طريقتين :

الطريقة الأولى : أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال

---

(٣٣٤) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندى اسماعيل ، الموظف بنظارة الحقانية ، والمنتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من حق الطلاق ، حيث قال الفقهاء من أهله : «إن الطلاق منع عن النساء ، لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى» مع أن هذه الأسباب باطلة ، لأن ذلك ان كان حال المرأة فى الماضى فلا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل ، ولأن كثيراً من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . وأستدل على ذلك بملاحظة وردت على عند اطلاعى على احصائية الطلاق فى فرنسا ، فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٠ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق فى ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريبا حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال .

ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه ، كأن كان شريرا أو من أرباب الجرائم أو فاسقا أو غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والأخلاق أن ترضى بعشرته .

وقد وفى مذهب الإمام مالك للمرأة بحقها فى ذلك وقرر أن لها أن ترفع أمرها إلى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر .

جاء فى [كتاب البهجة فى شرح التحفة] (٣٣٥) لأبى الحسن التسولى ما يأتى :

«إن الزوجة التى فى العصمة اذا أثبتت ضرر زوجها بها بشىء من الأمور المتقدمة ، والحال أنها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من أنه إن أضر بها فأمرها بيدها ، فقيل : لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم من غير أن تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور ، أى لا يتوقف تطليقها نفسها على اذنه لها فيه ، وإن كان ثبوت الضرر لا يكون إلا عنده ، كما أن الطلاق المشترط فى عقد النكاح ، أى المعلق على وجود ضررها لها أن توقعه بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقا . وقيل : حيث لم يكن لها شرط به لها أن توقع الطلاق أيضا ، لكن بعد رفعها اياه للحاكم وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك إن لم يرجع عن اضرارها ، ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر . ومنهم من قال أن الطلاق بيد الحاكم ، فهو الذى يتولى إيقاعه ان طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج ، وان شاء الحاكم أمرها أن توقعه . فعلى هذا القول لابد أن يوقعه الحاكم أو يأمرها به فتوقعه ، واذا أمرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعا حيث امتنع منه . وروى أبو زيد عن

---

(٣٣٥) هو شرح ابى الحسن على بن عبد السلام بن على التسولى ، الفارسى ، على الارجوزة المسماة [تحفة الحكام] للقاضى أبى بكر محمد بن محمد بن عاصم الأندلسى ، فى الفقه المالكى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن القاسم أنها توقع الطلاق دون أمر الإمام . قال بعض الموثقين : والأول أصوب » .

الطريقة الثانية : أن يستمر العمل على مذهب أبى حنيفة ، ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها متى شاءت ، أو تحت شرط من الشروط ، وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب .

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه ، فإن من المضار الحقيقية التى تتفق كل النساء فى التحفظ منها وبذل المستطاع فى اتقائها ما لا يكون سببا يسمح للقاضى أن يحكم بالطلاق فى مذهب مالك ، وذلك كتزوج الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى فى عصمته . فإن الزوجة الأولى لو رفعت شكواها إلى القاضى وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضى أن يجيب طلبها ، فلو اشترطت أن تطلق نفسها متى شاءت أو عندما يتزوج زوجها عليها كان الأمر بيدها ، ولكن العمل على الطريقة الأولى أحكم وأحزم ، **فإن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج** .

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والإنسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحمل أرواحهم بالوجدانات الإنسانية السليمة ، كان لى الأمل الشديد فى أن يحرك صوتى الضعيف همة كل رجل محب للحق من أبناء وطنى ، خصوصا من أولياء الأمور ، إلى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاتمة

تبين للقارئ مما سبق أن ما نريد ادخاله من الإصلاح فى حالة النساء ينقسم إلى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية .

والقسم الثانى : يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الإسلامية والعارفين بأحكامها إلى مراعاة حاجات الأمة الإسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء ، وأن لا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول إمام واحد أينما كان اجتهاده موافقا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشئون . فإن وجدوا فى قول إمام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول إمام آخر يكون فى مذهبه ما يسد الحاجة ، بدون خروج عن أصول الشريعة العامة .

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الإصلاح ، هو كغيره من سائر الأعمال النافعة ، إنما يتم بالعلم والعزيمة :

(١)
(أما العلم)

فهو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها ، وبه تتنبه أذهان أفرادها إلى ما هم فيه ، وما درجوا عليه من الأخلاق والعوائد ، والكمالات والنقائص ، بحيث يكونون على شعور دائم بأحوالهم ، وتكون تلك الأمور دائما موضوع بحثهم .

إن من الغفلة ، بل من أسباب الشقاء أن تكون شئوننا فى حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم أسبابها ولا ندرى آثارها فى أحوالنا ، بل إنما نتمسك بها لأنها جاءت إلينا ممن سلفنا ، وورثناها عمن تقدمنا ، وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا ، ومع أن هذا وحده لا يكفى لأن يكون سببا فى الأخذ بها ، ولا فى الثبات عليها ، بل يجب أن نفهم أن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ، ولنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شئون ولهم شئون ، ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم ، وذلك من البديهى الذى لا يختلف فيه اثنان .

فعلينا أن نأخذ من العوائد وأن نكسب من الأخلاق ما يلتئم مع مصالحنا ، فنكون مالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع ، لا أن نكون عبيدا لعاداتنا التى وجدنا عليها آبائنا ، فيكون مثلنا مثل الرجل وجد لباسه ضيقا فرأى أن يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا أن يصلح لباسه بتوسيعه حتى يتفق مع جسمه ! .

إنا لا نجد عقبة فى طريقنا إلى السعادة أصعب اجتيازا من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا ، من غير أن نميز بين تلك العادات ، صالحها وطالحها ، نعم ، إن الماضى لا يصح أن يطرح جملة ، لكن يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع ومضار .

لا أرى أعجب من حالنا : هل نعيش للماضى أو للمستقبل ؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر ؟ نرى العالم فى تقلب مستمر وشئونه فى تغير دائم ونحن ننظر إلى مايقع فيه من تبدل الأحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندرى ماذا نصنع ، ثم ننهزم إلى الماضى نلتمس فيه مخلصا ونطلب منه عونا فنرتد دائما خائبين .

رأينا فى هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة فى التاريخ ، رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وأبطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها ، فقطعت كل صلة بينها وبين ماضيها ، إلا ما كان متعلقا بجامعة شعبها ، ثم همت فبنت بناء جديدا مكان البناء القديم ، فلم يمض عليها نصف قرن إلا وقد شيدت هيكلا جميلا على آخر طرز أفاده التمدن ، فهبت من نومها ، ونشطت من عقالها ، وشعرت بأن الحياة تدب فى بدنها وتجرى فى عروقها دما حارا قويا فتيا ، تلك هى الأمة اليابانية ، صارت تعد اليوم فى صف الأمم المتمدنة بعد أن قهرت فى بضعة أيام دولة الصين الجسيمة التى لم يقتلها إلا إعجابها بماضيها ، أليس فى ذلك عبرة لكل متبصر ؟ .

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس فى شريعتنا لكان فى ميلنا إلى المحافظة عليها ما يشفع لنا ، أما وقد برهنا على أن كل ما عرضناه من أوجه الإصلاح يتفق تمام الاتفاق مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فلم يبق لنا عذر فى التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل ، وأننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شئوننا .

إذا توهم بعض القراء أن ما ورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعا للفتنة هو من الأحكام الدينية التى لا يجوز تغييرها فنقول : ان هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت فى الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ، ووكلت فهم الجزئيات إلى انظار المكلفين ، ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه .

ولما اتسعت خطة الإسلام ، وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت أحكاما ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من أصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ، ففصلوا ما أجمله القرآن والسنة من الأحكام ، وفرعوا منها ما يناسب الأحوال والأمصار والأعصار ، فهم لم يضعوا بذلك شرعًا ، ولم يضيفوا على الدين شيئًا ، وإنما كان اجتهادهم قاصرًا على النظر فى الجزئيات وردها إلى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة .

ألا ترى أن القرآن لم يبين أهم الفروض ، مثل أحكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ، ولا مقادير الزكاة وأوقاتها ، ولا مناسك الحج ، وأن السنة هى التى رسمت جميع الأحكام مجملة ، ثم جاء المجتهدون ففصلوا أحكامها وقرروا فروعها ؟.

على هذا النمط تألفت شريعتنا ، من فروع كلها راجعة إلى أصل واحد . **فالشريعة الإسلامية إنما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعا يمكن أن يجد فيه كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها .**

فهذه القواعد الكلية التى تحدد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء إليها على حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هى التى لا تقبل التغيير والتبديل ، أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ماتطلبه الشريعة فيها هى ألا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ، فكشف الرأس مثلاً قبيح فى البلاد الشرقية ، لأنه كان معتبرًا فى العادة مخلاً بالمروءة ، ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحًا فى العدالة ، ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية ، فلا يكون عندهم قادحًا ، فالحكم الشرعى يجب أن يختلف باختلاف ذلك ، وجواز إثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصًا فى أشخاص الشهود ، وإنما الغرض منه إثبات هذه التصرفات بالطريقة التى وقع الإصلاح عليها ، ولم يكن غيرها مألوفًا ، فإذا تغيرت الأحوال وتبدل الإصلاح واعتاد الناس على التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعى ، وتحولت طريقة الإثبات من الشهادة إلى الكتابة ، وإذا قيل باستحباب ستر المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم اقتضاء الحال لكشفه فى زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ولا تقضى ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها فلا مانع من أن يتغير هذا الأستحسان إلى ضده فى زمان آخر ، ذلك لأن اختلاف الأحكام باختلاف العوائد ليس فى الحقيقة اختلافًا فى الشريعة وإنما هو رد لأحكام الجزئيات إلى أصولها الكلية ورجوع بها إلى مقاصدها الشرعية .

تبين من ذلك أن لنا فى مأكلنا ومشربنا وجميع شئون حياتنا العمومية والخصوصية الحق فى أن نتخير مايليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ألا نخرج عن تلك الحدود العامة التى أشرنا إليها .

اما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا ، وعدم الخروج عن الدائرة التى رسموها لأنفسهم ، فهو القضاء على الأمة الإسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدى عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به فى سبيل سعادتها ، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢)

(وأما العزيمة)

فهى حث الارادة إلى كل خير أرشدنا إليه العلم والعرفان ، والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هى أشرف قوى الإنسان وأجلها وأعظمها أثرا فى أعماله . فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والأميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لايفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد من العزيمة . ولهذا كان ضعف الارادة أكبر عيب فى الإنسان . نرى الكثير من أهل بلادنا يستحسنون فكرة أو عملا ، ولكنهم لايجدون من أنفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة أو ذلك العمل ، ويكفى أنهم يعلمون أن بعض الناس لايتفق معهم فى رأيهم لتلاشى ارادتهم وسقوطها . أما إذا علموا أنه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فرارا .

إن كان لنا أمل فى نجاح ما نعده صالحا لنا فإنما يكون فى الرجل الذى يحب أن يعرف ويبحث ليعرف ، ويعرف بالفعل ماتحتاج إليه بلاده ، وله عزيمة تدفعه إلى العمل فى جلب ما ينفعها ودفع مايضرها بالوسائل التى تؤدى إلى المطلوب بطبيعتها ، طال الزمان أو قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بأن الخطوة الأولى فى كل شىء هى من أصعب الأمور ، لأن الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدىء فى أمر خطير ، ومن النادر أن يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فأحسن طريقة أراها لتنفيذ ما عرضناه فى هذا الكتاب هى أن تؤسس جمعية يدخلها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التى شرحناها ، وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين – (ولا أظن أن الطبقات العلياء من أهل بلادنا تخلو من واحد منهم) – وان يكون عمل هذه الجمعية فى أمرين :

الأول : التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة ...

والثانى : السعى لدى الحكومة فى اصدار القوانين التى تضمن للمرأة حقوقها ، بشرط أن لاتخرج فى شىء من ذلك عن الحدود الشرعية ، ولكن بدون أن تتقيد بمذهب من المذاهب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل تأخذ عن كل منها ماهو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا ، كما حصل مثل هذا فى وضع « المجلة العثمانية » ، وكما حصل عندنا مرارا فى بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية ، فإذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من اعضائها ، فان قوة الانتقاد تأتى موزعة على جملة من الأفراد ، فيسهل احتمالها ومقاومتها ، فلا يكون فى شدة الانتقاد مايبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل ، لأن فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ماليس فى قوة الفرد الواحد ، والاجتماع هو القوة الحقيقية التى بدونها لاينجح شىء .

نرى حكومتنا تهتم بمسألة صغيرة كمسألة الشفعة ، فتعين لها لجنة شرعية لتبحث فى المذاهب وتجمع ماتراه مناسبا من الأحكام ، ونرى كثيرا من المصريين يدخلون فى كثير من الجمعيات ، مثل جمعية الرفق بالحيوان ، ومعارض الأزهار ، وغيرها ، ولايضنون بوقتهم ولابمالهم فى تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته ، ونرى الجرائد تنشر بين طبقات الأمة من المعارف مايساعد على تربيتها وتهذيبها ، وقد آن الوقت الذى يجب فيه على الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام أن يوجهوا التفاتهم إلى حال المرأة المصرية ، فإنى لا أرى مسألة تمس بحياة الأمة أكثر منها ولا أحق منها بأن تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لآرائهم وأفكارهم .

(تم الكتاب)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإمام محمد عبده ٣١١
خطاب لقاسم أمين فى حفل تأبين الأستاذ الإمام .. عن أخلاقه وفضائله وإمامته ٣١٢

كتاب : [تحرير المرأة] ٣١٩
مقدمة ٣٢٠
تمهيد : (حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة) ٣٢٢
تربية المرأة ٣٢٩
١ ـ أما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية ٣٣٠
٢ ـ وأما بالنسبة للوظيفة العائلية ٣٣٤
حجاب النساء ٣٥٠
١ ـ الجهة الدينية ٣٥٢
٢ ـ الجهة الاجتماعية ٣٥٩
المرأة والأمة ٣٧٤
العائلة ٣٨٧
١ ـ الزواج ٣٨٧
٢ ـ تعدد الزوجات ٣٩٣
٣ـ الطلاق ٣٩٧
خاتمة ٤١١
١ ـ أما العلم ٤١١
٢ ـ وأما العزيمة ٤١٥

كتاب : [المرأة الجديدة]
الإهداء ٤١٩
مقدمة ٤٢٠
المرأة فى حكم التاريخ ٤٢٤
حرية المرأة ٤٣٦
الواجب على المرأة لنفسها ٤٥٥
الواجب على المرأة لعائلتها ٤٦٩
التربية والحجاب ٤٨٨
خاتمة : (حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء) ٥١١
المصادر : التى استخدمت فى الدراسة والتحقيق ٥١٩
موسوعات ودوريات ٥٢١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com